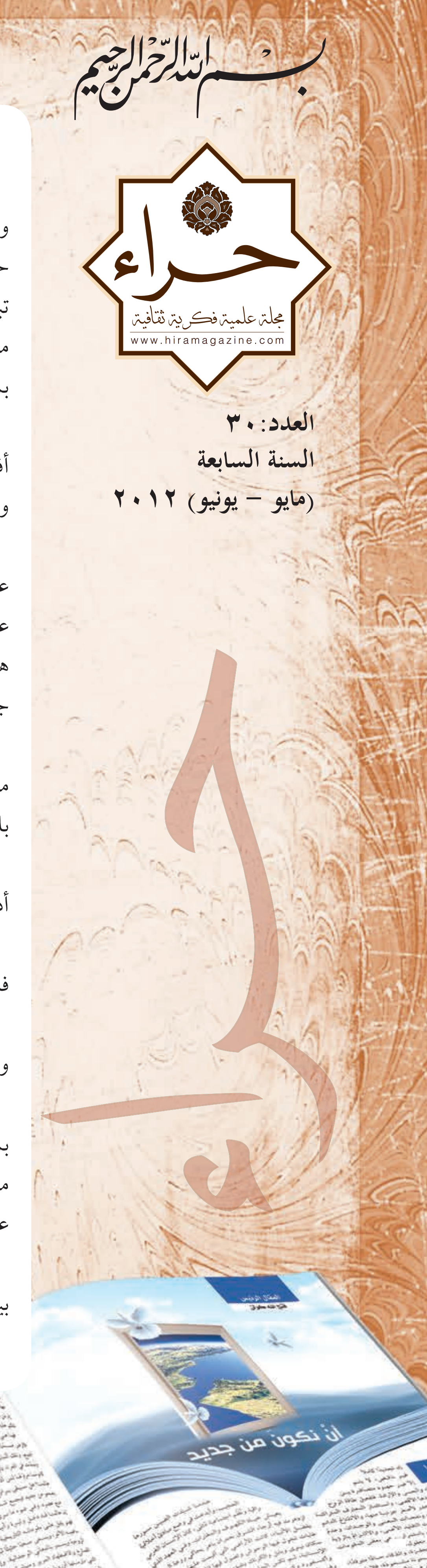

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com
العدد: ٣٠ / السنة السابعة / (مايو - يونيو) ٢٠١٢
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول
من وحي الجامع
رفعتَنا.. سموتَ بنا..
وأبوابَ الماوراء أوصلتَنا..
فانتشينا وهِمنا..
وفي أرواحنا اخضرّ الخلود..
وأَورقَ شجرُه، وأَزهرتْ أزاهيرُه..
حزانى منكسرين اليوم.. ننزف ألمًا.. ونحترق حزنًا..
فلعل كَسْرنا في الغد يُجبَر، وحُزنَنا يُغسَل..
* * *
أنْ نكونَ من جديد
المنهاج النبوي في التربية
تفاعل القيم الإنسانية في الأدب



العدد: ٣٠
السنة السابعة
(مايو – يونيو) ٢٠١٢

الافتتاحية

صانع البطولات

"حركـة مُثُلُهـا العليـا تنبض من قلبها".. هكذا قال الأسـتاذ "فتـح الله كولن" مرَّةً واصفًـا هـذه التجربـة ذات الامتدادات الواسـعة فـي العالم.. فهي لمـا تمتاز به من حيويـات إيمانيـة وفكرية، قادرة على صنع أبطالها بنفسـها لنفسـها، وقادرة على أنْ تبـدع أفكارهـا وتعايشـها وتتعلم منهـا من خلال تعريضهـا لـ"التجربـة والخطأ" في معتـرك هـذه الحيـاة، وهكذا تمضي في الطريـق تعلِّم وتتعلم.. فهـي على وعي تام بمسؤولياتها تجاه نفسها أولاً، وتجاه شعبها وشعوب العالم بأسره.

والأسـتاذ "فتح الله" واحدٌ من عشَّـاق البطولات في هذه الحياة.. فالمتتلمذ على أفـكاره لابـد أن يرتقي في فكره وإيمانه إلى مرتقيات بطوليـة تجعله محطَّ الأنظار، وتبوّئه مكان القيادة الفكرية والإيمانية لمن يريد الهداية ويرنو إلى النور.

ففي مفتتح "حراء" نقرأ مقاله القيم "أنْ نكون من جديد"، مسـتعرضًا فيه ما كان عليه المسـلمون من بطولات حضارية وإيمانيـة، وما صاروا إليه اليوم من هبوطات على كافة المستويات.. لقد كانت هذه الأمة في السابق فخر البشرية وشرفها، كانت هي المكان وهي الزمان، وهي اليوم لا زمان ولا مكان.. فالأستاذ يرى أن نعود من جديد إلى أن "نكون"، فذلك ما يسعى إليه قلمه وفكره.

ويكتب "يونس ملال" مقالاً قيمًا عن قضية فكرية لا زالت في حاجة إلى الكثير من الاهتمام، وهي مسألة الصراع القائم بين العقل الغيبي والعقل العلمي، وبين القول بالخلق المباشر ونظرية التطور لداروين، وذلك على ضوء التفكير السنني عند النورسي.

وعماد الدين خليل يواصل الكتابة في موضوع "الأسـلوب الملتوي" عند بعض أدباء العصر وشعرائه واعتمادهم الغموض وعدم الوضوح فيما يكتبون أو ينظمون.

وعـن العلاقـة بين "الفكر والعمـل"، يكتب محمد باباعمي مسـتعينًا بآراء بعض فلاسفة الاجتماع وفلاسفة العلوم وبيان أن نجمع بين الفكر والعمل.

و"أديـب الدبـاغ" يكتـب مقـالاً عن "الحـزن العظيم" الـذي يغلف الوجـود كلّه ويغشى الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه.

أمـا خالـد الصمـدي الذي تعودنا أن نقـرأ له أبحاثًا غاية في العمـق، فهو يتحفنا بمقالـه "المنهـاج النبوي فـي التربية" وعن منظومـة القيم الحضارية الإسـلامية. أما محمد خروبات فيكتب عن الأسرة وتحديات الكلام المعاصر، فهو يرى أنّ للأسرة علمَ كلام أسري تتميز به عن أي علم كلام آخر.

وسـعاد الناصر تكتب عن تفاعل القيم الإنسـانية في الأدب، وعن جدلية العلاقة بين القيم الإنسانية والأدب.

هذا إلى جانب مقالات رائعة، والله تعالى من وراء القصد.


التفكير السنني
عند بديع الزمان النورسي
المنمنمات العثمانية
تراث إسلامي مشترك
حديث عن حد العلم
والعلاقة بين الفكر والفعل
الأسرة
وتحديات الكلام المعاصر
ابتهال
أمام بيت الله

المحتويات


حراء
www.hiramagazine.com



فتح الله كولن

أنْ نكونَ من جديد

إن تجديدًا كاملاً غير ناقص، لا يتم إلا عبر جهود متضافرة بين الروح والذكاء والحس والإرادة. فتفعيل طاقة الروح وقدراتِها إلى حدها الأقصى، واستثمارُ المعارف المتراكمة عبر الماضي دون هدر لأصغر جزئية منها، والانفتاحُ الدائم على نسمات الإلهام ونفحات المعنى والوجدان، وعدمُ الانحباس في ممارسات التقليد الأعمى، والالتزامُ بالرؤية المنهجية والسلوك المنظّم باستمرار... هي بعض المقومات الأساسية لأي تجديد منطقي معقول.

فإذا كانت الروح قوية متحفزة، والذكاء حادًّا متوقدًا، والحس يقظًا مرهَفًا، والإرادة مشحونة مشحوذة، فلا خوف من أن نكون اليوم في الأعلى أو في الأسفل أو أن نكون متقدمين أو متخلفين؛ ذلك لأن الإنسان إذا تمكن من أن يحلّق بروحه وإرادته، وعقد العزم على مواصلة السير في طريقه، فسوف يتربع على القمم غدًا لا محالة، وإن بدا اليوم يلهث في آخر ركب المتخلفين.

عندما شيّدت الصين سورها العجيب، وأبدعت في وضع مبادئ أخلاقية راقية ونُظُم اجتماعية مُثلى، كان الإنسان الغربي يعيش حياة الكهوف والمغارات. وفي العهد الذي ازدهرت فيه أرجاء الشرق بعمران باهر يحاكي روعة الجِنان بفضل الأنبياء، كانت الأراضي التي أقيمت عليها مدينة لندن غابات تجول فيها الوحوش وتصول فيها الذئاب. وبينما كان سكان نينوى وبابل والكرنك يتفيؤون ظلال أروع الحضارات الإنسانية، لم تكن الجامعات الكبرى أمثال السوربون وأكسفورد وكمبريج قد دخلت عالم الرؤى والأحلام بعد. وفي الوقت الذي كان الغربي يتخبط في قبضة جهل حالك وهمجية متردية خلال القرون الوسطى التي أنكرها فيما بعد ووصفها بالمظلمة -وفعلاً كانت مظلمة بالنسبة له- كان العالم الإسلامي يعيش عهد تنويره العظيم وانبعاثه الفريد عبر الأندلس وبغداد وبخارى وأمثالها من رموز حضارتنا الراقية؛ بل إن هذا العهد الزاهر قد شكّل منبعًا ثرًّا استلهم منه الأوروبيون صحوتهم التنويرية التي جاءت فيما بعد.

منذ أن خُلق الوجود لم يثبت شيء في موقعه قط، ولم يُكتب الخلود لكائن مهما كان. فمن جاء رحل، ومن رحل ناب عنه غيرُه، ثم أعقب هؤلاء آخرون وآخرون، وهكذا.. فمن سعد في عهد وعزّ، شقي في عهد آخر وذلّ؛ ومن ذلّ في عهد وتَدنّى، عزّ في عهد آخر وسما. فمن ذا يمكنه أن يقول إن مَن بدا اليوم عزيزًا متبخترًا لن ينقلب غدًا ذليلاً مهينًا، ومن حُكم عليه بالذل والهوان اليوم لن يسعد بتاج العز مستقبلاً؟!

فها هي اليابان التي دُمّر بنيانُها تدميرًا، ومُسحت بها الأرض مسحًا، قد نهضت اليوم لتصفية حساباتها مع العالم أجمع. وتلك ألمانيا التي كُسّرت سواعدُها، وقُصّت أجنحتُها، ونُبذت في العراء ذليلة مقهورة البارحة، قد أصبحت اليوم كابوسًا مروِّعًا لمن أذاقها مرارة الذل والمهانة. إذن ما بال عالمنا؟ هل سيبقى يراوح مكانه؟ أبدًا... إنه قادر على أن يصحو من جديد فيجمع شتاته، وينطلق لكي يسوّي حساباته مع عصره. وفي ضوء ما نرى ونلاحظ اليوم يمكننا القول إن عالمنا قد دخل وتيرة رأب الصدع، وجمع الشمل؛ فهو يقبل على مقوماته التاريخية التي يَدين لها في صناعة ماضيه الأغر، ويسعى سعيًا حثيثًا لبناء مجتمع يتألق بالقيم الروحية ويسمو بالمعاني الوجدانية. وإذا تصورنا تأثير الظلم الصارخ والاضطهاد المرير وسياسة القمع الماكرة المتواصلة التي مارستها أوروبا منذ عقود وعقود في رفع وتيرة شحنه الروحي، فضلاً عن الخبرة التي تراكمت لديه عبر قرن كامل من الزمان، فذلك يعني أن المناخ قد أصبح ملائمًا، وأن الظرف قد صار مناسبًا، وأن الشروط قد اكتملت للانبعاث مرة أخرى وللنهوض من جديد.. لا سيما وأن العالم الآخر قد أشرف على الهلاك، وبلغت الروح منه الحلقوم جراء إصابته بآفات التفكك وعلل الانهيار، وبات يرزح تحت نِير الإباحية العبثية، وجرثومة اللاأخلاقية الفوضوية، ومصيبة الجفاف الروحي، ومتاهة الحياة الجسمانية. وإنّ وضعًا كهذا لا ينذر إلا بالسقوط الأكيد والدمار الحتمي، إن لم يكن اليوم فغدًا.

إن سكرة النصر ونشوة النجاح التي غمرت بعض أبناء أمتنا في بعض الفترات، وما تلاها من آفات الاسترخاء، وحب الراحة والدعة، والتنقيب عن الحياة الناعمة، والسعي لإشباع الرغبات والنزوات.. إن هذه الآفات قد أحكمت كمّاشتها اليوم على المجتمعات الغربية بالكامل وهي تسوقها إلى هاوية الموت خطوة خطوة. وإن الكُتَل المادية التي سئمت من الصراعات، وكلّت من الحروب وانحازت عنها بعيدًا، وألقت بنفسها شيئًا فشيئًا في زخارف الدنيا الزائفة ومفاتنها الصورية وسحرها الخادع وجمالها الزائل... إن هذه الكُتَل سوف تنهار مناعتُها، وتنكسر مقاومتها، وتخور قواها، وتعيا عن الصمود أمام القوة المركزية الجاذبة لتلك الدوامة الرهيبة التي ما فتئت تلك الكُتَلُ تحوم حولها، ومن ثم فليس أمامها إلا أن تستسلم إلى محاور استقطاب أخرى وتنجرف في تيارها، فتستحيل حالُها وتتغير طبيعتُها وتتبدل ماهيتُها، أو تهلك وتموت وتنمحي من مسرح التاريخ إلى الأبد. دعهم اليوم وما يتغنون به من أناشيد النصر وأغاني الفتح، وما يدندنون به من أن الأرض قد دانت لهم، وأنهم قد بسطوا هيمنتهم المطلقة على العالم كله، وأحكموا زمامهم على كل مكان... فإن وجه المستقبل لا يبدو باسمًا لهم أبدًا.

أجل، فكما دالت حضارة بابل ومصر واليونان وبيزنطة والسلاجقة والعثمانيين، فستدول المجتمعات الغربية كذلك، وتُشرِف على خاتمتها، وينتهي عهدها بمعنى من المعاني، وتنمحي من مسرح التاريخ من حيث دورها الذي تؤديه، وتخلي مواقعها إلى أمم جديدة أعمق إيمانًا وتدينًا، وأبلغ حيوية وتحفزًا، وأشد عزمًا وثباتًا، وأرقى رؤية وأسمى قراءة لحقيقة الحياة.

إن أسباب السقوط والانهيار هي عينها أمسِ واليوم وغدًا. وإن سقوطنا الذي يمتد إلى قرابة قرنين من الزمان قد سار في الخط نفسه. فلم نستطع أن نحافظ على صلابتنا الدينية، ولا على وحدة الصف والروح، ولا على عاداتنا وتقاليدنا. أجل، لم نفلح في إعداد العدة للمستقبل، ولم نحسن عملية الشحذ والتعبئة له؛ كما لم ننجح في تنشئة الأجيال الفتية ولا في تجهيزها وفق هذه الرؤية.. بل وعجزنا عن المحافظة على فتوتنا على مستوى الأمة؛ ومن ثم فشلنا في مقاومة الزلازل الداخلية والعواصف الخارجية التي لم تهدأ قط ولم تنقطع يومًا، فسقطنا سقوط شجرة دلب عملاقة قد تآكل جوفُها.

أما اليوم، فبينما يهوي الطرفُ الآخر نحو حفرة موته خطوة خطوة وهو غارق في خضمّ المفاسد والمخازي، ترانا نحلق باستمرار نحو ذرى عالية بمعية أمم تشاطرنا الخط نفسه.

لقد وصفوا لنا -حتى اليوم- ذلك العالم الذي تأسس بنيانه على باطل بأوصاف مزخرفة لا أصل لها، وصوروه لنا بغير صورته، فثبطوا هممنا، وأخمدوا جذوة حماسنا، وكسروا معنوياتنا، وحطمونا في إرادتنا واحدًا تلو الآخر حتى أصبحنا مشلولين جميعًا. وإن النخب المثقفة الذين روّعتهم صدمة

التقـدم الصناعي والتطـور التكنولوجي الذي وقع في الغرب، بدلاً من أن يهبّوا لتجديد الذات وفقًا لطبيعة العصر في تقلباته ومسـتجداته، وقعوا في خطأ تاريخي فادح، حيث هرعوا إلى التخلـي عـن كافـة قيمنـا النابعة مـن ذواتنا، وجميـع فضائلنا التـي تمثـل جوهرنا، واندفعـوا نحو التغرب جملـة وتفصيلاً في أنماط الإحسـاس ونظم التفكيـر. ولكن هيهات.. فلا هم صاروا غربيين بالمعنى الكامل، ولا اسـتطاعوا أن يعودوا إلى عالمهـم الذاتـي من جديـد.. ضاع الجوهـر.. وانهارت القيم الروحيـة والمعاني الوجدانية.. وتزلزلت شـجرة الأمة زلزالاً رهيبًا.. والأدهى من كل ذلك أنه لم يتأتّ لنا اللحاقُ بالغرب ولا محاذاتُـه فـي قيمـه الذاتية لقـاء ذلك الثمـن الباهظ الذي تكبّدنـاه. ولـم يكن ذلك ليقع أبـدًا، إذ كيف لأمة تفاعلت مع الـروح، وتمازجت مع المعنى، وتوحدت مع القيم الوجدانية عبر قرون وقرون أن تتقبل –جملة وتفصيلاً– حضارة لم تقم في أساسـها على السـمو الروحي والمبادئ الإنسـانية؟! ولم يحصـل التقبّـل فعلاً، بيـد أن الأمة فقدت الكثيـر من روحها وذاتها وحقيقتها في هذا الإبّان.

أجل، لقد تم الترويج للغرب بيننا على مر العقود السـابقة علـى اعتبـاره منبعًا للفضائل والمحاسـن رغم ما يزخر به من مسـاوئ ورذائل، وتـم الإغضاء كليًّا عن سـلبياته الفتاكة، في الوقت الذي نُسـجت حول ميزاته الضئيلة ملاحم وأسـاطير، وأحيطـت بهـا هالة مـن التضخيم والإعظـام، فـكان التهليل لأدنـى المحاسـن والتصفيقُ لأقـلّ المزايا، ودُفـع الناس إلى المُـكاء والتصديـة دفعًـا.. ضُللـت الجماهيـر أيمـا تضليـل، وخدعـت الجموع أيما خداع.. وكانت الأمة هي الضحية في هذه اللعبة، وهي الدافعَ للثمن أيضًا كما هو الحال دائمًا.

واليـوم، هـا هو عهـد جديد أطـلّ علينا.. عهد يَـدُول فيه التفككُ عليهم، ويدور السـقوط دورتَـه فيهم.. بينما تبزغ في أفق عالمنا شـمس اسـتيقاظنا من جديد واستعادة وعينا بذاتنا ونهضتنـا مـرة أخرى نحـن ومن يرافقنا على الـدرب من أمم أمثالنا. وإن الإسـراع أو الإبطاء في درب هذا التكون الجديد مرتبط أشـد الارتبـاط –في إطار الأسـباب الكونيـة– بجهود أبطـال يمثلون إرادة الله ويوقّرونها في أعماقهم. وإذا كان كل جهد بشـري دعاء بحد ذاته، فإن كل خَلق يصدر عن صاحب القدرة اللانهائية ما هو إلا إجابة لذلك الدعاء. ومن ثم ينبغي أن نعـي جيـدًا ماذا نبتغي وماذا نريد، وينبغي كذلك أن نطلب مبتغانا في دائرة الأخذ بالأسباب والالتزام بها.

للأسـف، منذ إعـلان "التنظيمات"[1] حتى اليـوم لم نفلح في تحديد مبتغانا، ولا في التعبير عن ذلك المبتغى بأسـلوب مناسـب، ولا فـي نقلـه إلى سـاحة التفعيـل. كذلك لـم ننتبه أبدًا إلى رعاية السـنن الاجتماعيـة والاقتصادية الضرورية في تقـدم الأمم وارتقائها، ولـم نسـتطع أن نسـتثمر مواهب الأمة وقُدُراتهـا، بـل وتغافلنا عن بنائها الأخلاقـي وبعدها الروحي دومًا.. واسـتهوانا النظر –حصريًّا– إلى المقومات التي كانت منطلقًا لرقي الدول الغربية في يوم من الأيام... أجل استهوانا النظـر إليها، واعتبرناهـا ثوابت لا تتغير، ومسـلَّمات لا تُضِلّ ولا تُزِلّ، فاندفعنا نستنسخها واحدة تلو الأخرى إلى أن كبّدنا الأمة خسارة حتمية في سبيل ربح موهوم.

بينما كان الواجب أولاً وقبل كل شـيء، أن تُبسَـط أجنحة الحفـظ وألويـة الحماية علـى قيمنـا الدينية ومبادئنـا الوطنية وفضائلنـا الأخلاقية ومقوماتنـا الثقافية التي توحدت مع كيان الأمة حتى صارت الروح السـاري في جسدها والدم الجاري فـي عروقها، ثم أن يُؤخَذ مـا يتوجّب أخذُه من الآخرين وفقًا لهـذه القيـم وتلك الرؤية. فلو تم الأمر على هذا النحو، لكان أوفـق بالسـير الفطري وألصق بالتحرك السـنني، ولكان حظنا من قطف الثمار أوفر وأبقى. بيد أن المؤسف والمؤلم حقًّا هو أن هذا الأمر المهم جدًّا تعرض للإهمال على الدوام، واستمر تجاهلـه عـن عمد في جميع حـركات الإصـلاح المنبعثة في عالمنا منذ أمد بعيد. بالله عليكم، أكان ارتقاء الدول التي تتربع فوق قمم الازدهار المادي اليوم لأنها استوردت نُظمًا قانونية مُثلَى –من وجهة نظرها– ثم طبّقتها في كافة مناحي حياتها إبّان نشأتها، أم لأنها بحثت عن أوجه حاجاتها، ونقّبت عن مواطن ثغراتهـا وهـي تتدرج في مـدارج الارتقاء والتقـدم، فوضعت قوانين تسد تلك الثغرات واجتهادات تناسب تلك الحاجات؟!

الحقيقـة أن النظـر إلـى تلك الـدول باعتبارهـا تمثل عين الصـواب فـي كل قضية، إنما هو انحـراف خطير إبّان البحث عـن الصـواب؛ كما أن التعثـر وعجز الإجادة في الاستنسـاخ أثناء عملية الاستنساخ ذاتها، إنما هو ضرب من عمى البصيرة ولون من العار المشين.

إننا كأمة بدءًا من مصطفى رشـيد باشـا إلى مدحت باشـا، ومنه إلى "العثمانيين الشـباب"،[2] وحتى "الاتحاد والترقي"[3] لـم نفكـر بهذه القضايا مطلقًا، بل ونظرنا إلى إنسـاننا على أنه

فرنسي أو إنكليزي أو ألماني، وسعينا إلى نظم فكرية مستوردة لكي نلبسها أبناء أمتنا وهمًا منا أنها ملابس جاهزة فصلت من أجلهم خصيصًا.

إن الفرمانات السلطانية التي صدرت والمذكرات القانونية التي أعدت في عهد التنظيمات وفي العهود التالية، لم تَخرج في جوهرها عن هذا الإطار من الفهم الزائع، بل وقُصد بها التملقُ والتزلفُ إلى "الدول المعظمة" أثناء الإعداد.. ولم تؤخذ طبيعة البنيان الأساسي للمجتمع بنظر الاعتبار قط.. ولم يُحسَب حساب ما ستأتي به هذه الفرمانات والمذكرات من مغانم ومغارم.. بل عندما كان "الخط الهمايوني"[٤] في "كولخانة" يتلى وسط ابتهاج ساطع ببريق المظاهر ورنين الهتافات، لم يكن حتى كبار رجال الدولة قد فهموا شيئًا من تلك العبارات المزركشة التي تطايرت في الفضاء يومها، ناهيك عن أن تَفهمها الجماهير الشعبية.

فلو أن رجال الدولة لدينا من لدن سليم الثالث وحتى اليوم، أبدوا قدرًا يسيرًا من العناية من أجل الحفاظ على قيمنا الدينية والوطنية والثقافية أثناء عرضهم مشاريع شتى تتعلق بمستقبل الأمة والوطن، وتحت مسميات الإصلاح التي امتلأت بها فرمانات متتالية عديدة.. لو أنهم أبدوا شيئًا من العناية لكنا قد قطعنا مسافات واسعة من ذلك الوقت حتى اليوم. ولكن هيهات.. فقد تم تجاهل هذا المنحى كليًّا في كل مرحلة من مراحل الإصلاح، وبالتالي فإن محاولات "التنظيمات" و"المشروطيات"[٥] التي ولدت مشوهة في أصلها، باءت بالفشل ولقيت حتفها لحظة ولادتها.

إن الأمم التي تحركت معنا في الدرب نفسه وفي الأيام عينها التي انطلقت فيها مشاريعنا الإصلاحية، تحلق اليوم فوق قمم الارتقاء المادي. ولا حاجة إلى الجلوس الطويل والتأمل المتصل لكي نكتشف سر ارتقاء هؤلاء. فالذين استطاعوا البارحة أن ينظموا وقتهم في بلدانهم، وأجادوا تقسيم الوظائف وتوزيع الأدوار بصورة مثالية، ونشروا حس الأمن وشعور الثقة وسط أفراد مجتمعاتهم ولو بنسبة معينة، وحافظوا على قيمهم الوطنية والتاريخية بإلحاح.. هؤلاء، ظهروا اليوم كأمة حقًّا.. نعم كأمة، وإن لم تكن عاقبتهم تدعو إلى الأمل.

والآن، أناشدكم، إن كنا نزعم حرصنا على مستقبل أمتنا، فهل يمكننا أن ندعي أننا سعينا إلى تنظيم الوقت تنظيما جادًّا يرقى إلى مستوى الأمم المتقدمة، أو إلى تقسيم الوظائف وتوزيع الأدوار بصورة مثالية؟! وهل يمكننا أن نقول بأننا استطعنا أن نبث الأمن وننشر الثقة داخل أفراد الأمة وفقًا لمعاييرنا الثقافية ومبادئنا الذاتية؟! وهل يمكننا أن ندعي أننا استطعنا أن نصون ونحفظ قيمنا الدينية والوطنية التي تعتبر كل واحدة منها جوهرة فريدة لا مثيل لها؟!

ولكن، على الرغم من كل هذه السلبيات، فإن إنساننا لا يزال حيًّا بكل أجزائه، ميممًا وجهه شطر المستقبل، واعيًا بذاته، واعيًا بـ"من يكون"، و"ماذا يريد أن يكون"، مصممًا على القيام بواجباته ومسؤولياته التاريخية، متطلعًا إلى الفرص والإمكانات التي سيجهزها له أصحاب القرار ممن يحتلون القمم. إننا على يقين تام، بأن أمتنا -ما لم تعصف بها رياح معاكسة- ستأخذ موقعها الباهر في الموازنات الدولية مرة أخرى عبر السبل والإمكانات التي تهيئها دولة الزمان ودورة التاريخ، ولن تستطيع أي قوة أن تمنع وقوع هذه النتيجة بعون الحق ﷻ. ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الهوامش

[١] وهي فترة إصلاحات في الدولة العثمانية بدأت سنة ١٨٣٩ وانتهت بفترة المشروطية الأولى في ١٨٧٦. وقد عَرفت هذه الفترة محاولات لتحديث الدولة وتأمين وحدتها ضد الحركات القومية الانفصالية. والإصلاحات أكدت على الهوية العثمانية وحاولت أن تدمج غير المسلمين وغير الأتراك في المجتمع العثماني بتحسين حرياتهم المدنية ومنحهم المساواة كاملة. (المترجم)

[٢] وهي حركة معروفة في أواخر الدولة العثمانية بحركة "تركيا الفتاة". وهي ذات صبغة قومية حداثية ثورية بدأت في عام ١٨٨٩ بمطالبات إصلاحية سياسية في صفوف الطلاب العسكريين ثم شملت قطاعات أخرى، وكانت بدايتها ممانعة لسلطة السلطان عبد الحميد الثاني. وعندما تأسست جمعية الاتحاد والترقي في ١٩٠٦ ضمت معظم أعضاء تركيا الفتاة. بنت الحركة واقعًا جديدًا لانشقاقات صاغت الحياة الثقافية والسياسية والفنية للدولة العثمانية قبل انهيارها. وكرد فعل لحركة تركيا الفتاة تم إنشاء جمعية العربية الفتاة على يد مجموعة من الطلاب العرب في باريس عام ١٩٠٩. (المترجم)

[٣] هي حركة قومية معارضة للسلطان العثماني تأسست عام ١٩٠٦، وضمت أعضاء تركيا الفتاة، وشكلت أول حزب سياسي في الدولة العثمانية. وصلت إلى سدة الحكم بعد تحويل السلطنة إلى ملكية دستورية وتقليص سلطات السلطان آنذاك عبد الحميد الثاني في انقلاب ١٩٠٩. وهي التي ساقت الدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى وساهمت في انهيار الدولة وتفككها مساهمة كبيرة. (المترجم)

[٤] وهو المرسوم السلطاني الذي عرف بفرمان التنظيمات والذي أعلن عنه في حديقة كولخانة المجاورة لقصر توب قابي في إسطنبول عام ١٨٣٩ في عهد السلطان عبد المجيد حيث شمل إصلاحات دستورية طبعت صبغتها التغربية التحديثية على فترة طويلة عرفت بفترة التنظيمات. (المترجم)

[٥] وهي محاولات الانتقال إلى النظام الدستوري البرلماني في الدولة العثمانية، وذلك في عام ١٨٧٦، وفي عام ١٩٠٨. (المترجم)

د. حذيفة أحمد الخراط*



السرطان
ذاك الداء المجهول

كثر الحديث في الآونة الأخيرة حول داء السرطان، وغدا محط أنظار الدارسين حول العالم، ومحورًا رئيسًا للكثير من الندوات العلمية والمؤتمرات البحثية. فأعداد المصابين بهذا الداء حول العالم في تزايد مستمر، ونسبة كبيرة من هؤلاء تخطفهم أصابع القدر، مما دعا العلماء إلى دراسة هذه الظاهرة المرَضية عن كثب، بغية كشف جانب من أسرارها التي ما زالت في عداد المجهول، وذلك في غمرة محاولتهم الحد من زحف هذا الداء بوسائل الوقاية والتشخيص الباكرين.

ما السرطان؟

السرطان (Cancer) داء معروف وهو ليس بالجديد، إذ جاء ذكره ووصفه في كتابات طبية على لسان بعض الحضارات القديمة، التي عرف عنها تطور العلوم الطبية. ويقال: إن اليونانيين هم من أطلقوا اسم "السرطان" على هذا الداء، ولعل ذلك تشبيهًا له بالحيوان البحري الذي يحمل نفس الاسم، والمعروف برسمه المتشعب وشكله المنفر والمخيف.

ولفهم حقيقة داء السرطان، يجب أن ندرك بعض الحقائق العلمية التي تخص أجسامنا التي تتكون من تجمع ملايين الخلايا الحية التي تبني أنسجة أجسامنا المختلفة... والخلية (Cell) هي الوحدة الرئيسية في بناء جسم الإنسان.

ولخلايا الجسم، عمرها الافتراضي الذي تموت بعده ليتم تعويضها بعد ذلك عبر عملية انقسامات متتالية ومحددة، وتخضع لقانون دقيق لاستبدال ما يفقده الجسم من الخلايا، إذ تنقسم كل خلية لتعطي خليتين، وينتج عن كل واحدة منهما خليتان جديدتان... وهكذا تستمر هذه العملية ضمن نظام فسيولوجي دقيق محكم: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(لقمان:١١).

وتتوقف انقسامات الخلايا تلك في الحالات الطبيعية عند حد معين، وبالتحديد عندما يتم الفراغ من تعويض الخلايا المفقودة أو الميتة، إلا أن سبب حدوث ذلك ما برح سرًّا من أسرار الجسم... وما يزال العلماء في حيرة من أمرهم وهم يتساءلون: لماذا لا تستمر انقسامات الخلايا فوق ذلك الحد!؟

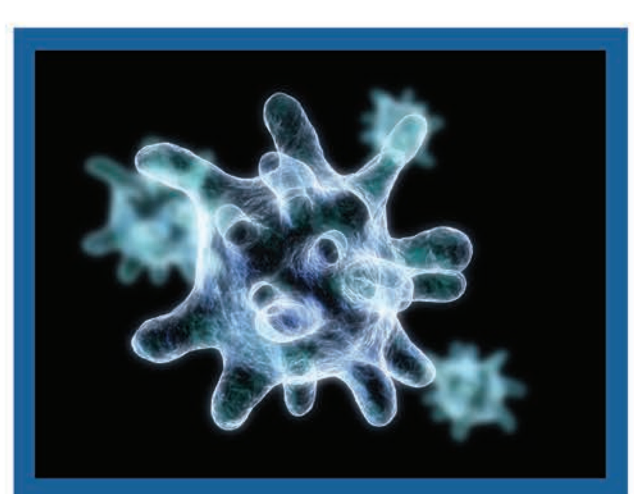
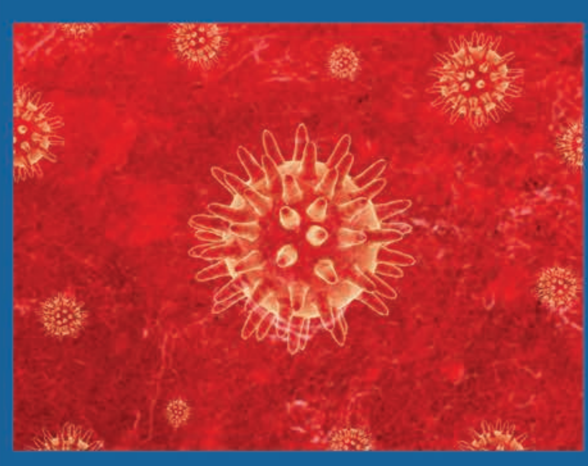
يمكننا الآن وصف السرطان بالداء الذي تنمو فيه خلايا الجسم بصورة غير منتظمة، إذ يستمر مسلسل انقسام الخلايا هنا وتكاثرها لتنشأ عنه أعداد كبيرة من الخلايا الزائدة في عددها، والشاذة في شكلها، ونتاج ذلك كله ظهور كتلة كبيرة من الخلايا تعرف باسم "الورم" (Tumor).

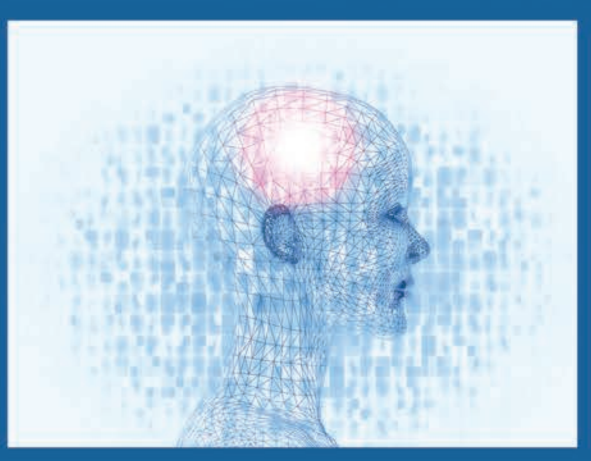
أورام حميدة وأخرى خبيثة

ثمة نوعان من الأورام؛ أولهما خبيث وهو ما يعرف بالسرطان، وآخرهما حميد. ومن الممكن أن تصيب الأورام أعضاء مختلفة في جسم الإنسان وهي أمراض غير مُعْدية، وقد تظهر في أية فئة عمرية، لكنها تلاحَظ أكثر لدى كبار السن.

وثمة فروقات تميز الورم الحميد عن الخبيث؛ ففي الأول يحدث نشاط زائد في نمو الخلايا الحية، إلا أن ذلك يبقى -في العادة- محدودًا، ولا يرقى فيصل إلى ما يحدث في السرطان من نمو نشيط وانقسام غير محدود لخلايا النسيج المصاب.

كما أن خلايا الورم الحميد تبقى محصورة ضمن النسيج المصاب، أي إنها لا تنتشر لتصل إلى أنسجة أخرى، وهي في غالب الحالات محاطة بغشاء رقيق من الخلايا ليس



بمقدورها أن تتجاوزه... ومن الممكن أن يصل حجم الورم الحميد إلى أحجام كبيرة، إلا أن ذلك نادر الحدوث.

أما الورم الخبيث (السرطان)، فينتج عنه خلايا كثيرة العدد وشاذة في الشكل، وبمقدوره أن ينتشر فيصيب أنسجة وأعضاء أخرى في الجسم، وليس ثمة غلاف أو غشاء يحيط به فيحد من انتشاره، وتستمر الخلايا بالنمو دون توقف أو تنظيم، وإن كان هذا الأمر نسبيًا ويختلف بين سرطان وآخر.

وقد تنجح بعض الخلايا السرطانية في الوصول إلى وعاء دموي فتغزوه، فينقلها سائل الدم إلى أجزاء مختلفة في الجسم، وقد تصل إلى الأوعية اللمفاوية فتنقلها بدورها إلى أنسجة أخرى سليمة، وهذا مما يجعل خطة العلاج صعبة نظرًا لتوسع مساحة أنسجة الجسم المصابة شيئًا فشيئًا. ومن أمثلة ما ينتشر من داء السرطان: وصول سرطان الكلى إلى العظام، وسرطان الرئة إلى المخ، وغير ذلك.

أسباب ظاهرة السرطان

رغم التطور الملاحظ في مجالات العلوم الطبية المختلفة، إلا أن العلم الحديث لم ينجح بعدُ في كشف النقاب، وسبر كل ما يخص داء السرطان من حقائق ومعلومات، إذ إن جوانب كثيرة منه ما تزال بعدُ مجهولة. وثمة الكثير من الفرضيات والنظريات التي تشير فيها أصابع الاتهام إلى أسباب ظهور السرطان في الجسم، إلا أن جانبًا من تلك المقترحات يبقى حتى الآن من دون تأكيد أو إجماع علمي.

ويعتقد بعض العلماء أن الجينات الوراثية هي المسؤولة عن حدوث اضطراب نمو الخلايا في الجسم، وتحولها إلى مسار سرطاني. ويدعم نظرية هؤلاء، ما لاحظوه من إصابة شعوب دون أخرى بأنواع سرطان خاصة؛ ففي إيرلندا واليابان -مثلاً- تكثر حالات سرطان المعدة، وهو في الوقت نفسه داء نادر الحدوث في دول أمريكا الجنوبية، كما يكثر سرطان الثدي في أمريكا الشمالية، إلا أن حالاته في دولة كاليابان قليلة جدًّا.

ويرِد اسم التدخين في رأس قائمة مسببات السرطان، وثمة إجماع على علاقته المباشرة مع ظهور عدة أنواع من هذا الداء في الجسم؛ مثل سرطان الرئة والمثانة، كما يُذكر تعاطي الكحول أيضًا، وما له من علاقة بظهور سرطان الفم والكبد.

وللإكثار من التعرض المباشر لأشعة الشمس دور في ظهور بعض أنواع سرطان الجلد. وقد تترافق من جانب آخر المداومة على التعرض للمواد الكيماوية، مع الإصابة بسرطان الرئة نتيجة استنشاق بعض المواد الصناعية مثل مادة "أسبستوس" (Asbestos)، ومعدن "النيكل" (Nickel)، والمبيدات الحشرية، والمواد التي تدخل في صناعات الفحم ومشتقات الكربون، والأصباغ التجارية، ونواتج البترول.

أما عن علاقة الغذاء بالسرطان، فهي مثار جدل كبير، ولم يتم حتى الآن الكشف عن رابط مباشر بينهما. ومن المعلومات التي يرِد ذكرها على لسان العلماء هنا، وجود علاقة بين الإفراط في تناول بعض الأغذية والإصابة بسرطان الجهاز الهضمي. ومن الأغذية التي يحيط بها قفص الاتهام نذكر: الدهون الحيوانية، والأغذية الغنية بالسكريات، والمأكولات المعلبة، والأغذية المملحة والمدخنة والمقلية وغيرها.

وتذهب بعض الدراسات إلى وجود علاقة بين السمنة المفرطة والإصابة بالسرطان. كما تذكر دراسات أخرى، أن لزيادة نشاط بعض غدد الجسم وما تفرزه من هرمونات، تأثيرًا مسرطنًا، ومن ذلك الإصابة بسرطان الثدي وغدة البروستات.

وفي ذيل قائمة الأسباب، يرجح تأثير بعض الفيروسات في ظهور سرطانات معينة في أجسام حيوانات المختبر، إلا أن ذلك لم يثبت بعدُ في جسم الإنسان.

ما أعراض الإصابة بالسرطان؟

ثمة قائمة طويلة من أعراض إصابة الجسم بداء السرطان، وقبل أن نشرع في الحديث عنها، يجب أن نتذكر أن ظهور أعراض كتلك، لا يعني بالضرورة تأكيد الإصابة بالسرطان، ولا يستدعي -بالطبع- إصابتنا بالقلق أو الهلع؛ فقد تنتج بعض الأعراض عن أسباب أخرى غير سرطانية كالالتهابات مثلاً. ما يتوجب إذن فعله -إن ظهرتْ تلك الأعراض- هو طلب المشورة الطبية العاجلة بغية دفع الشك باليقين.

وهناك أعراض مرضية عامة يشترك في ظهورها معظم أنواع السرطان؛ ومن ذلك فقْدُ الوزن السريع، والشعور بالضعف العام والوهن، والإصابة بفقر الدم، وتظهر بالمقابل أعراض خاصة في أعضاء الجسم التي يستهدفها نمو الخلايا السرطانية.

ومن ذلك، ما يخص أعراض سرطان الجهاز الهضمي مثلاً، التي يظهر منها عُسْر البلْع والهضم، وفقْدُ الشهية، وحدوث الألم بعد الأكل، والقيء، والإسهال الذي يعقبه الإمساك، والنزيف عبر المستقيم، والمغص البطني.

وفي سرطان الجلد، قد يشكو المريض من كتلة أو قرحة مزمنة لا تستجيب للعلاج الدوائي، وقد يشكو من عدم التئام الجروح، أو تغير لون الجلد، وتساقط الشعر الشديد، والحكة المستمرة.

وقد يدل السعال المزمن الممزوج بالدم، وسماع بعض الأصوات التنفسية الشاذة (Wheezing)، وضيق النفَس، وألم الصدر، على إصابة المريض بسرطان الرئة وهو أكثر سرطان يسبب الموت في صفوف الرجال.

أما سرطانات الفم والشفة واللسان، فتظهر فيها قُرح يصعب علاجها دوائيًا، ويتغير لون الأنسجة المصابة هنا ليميل إلى الأبيض.

ومن السرطانات التي تمس الجهاز البولي، ما يظهر في الكلى والمثانة وغدة البروستات، ومن أعراضها ظهور الدم مع البول، وصعوبة البدء بعملية التبول، وكثرة التبول أحيانًا.

ويعطي سرطان الدماغ صورة سريرية غير محددة المعالم، ويشكو المريض هنا من الصداع، والقيء، والغثيان، والدوار.

ويأتي سرطان الثدي والرحم في رأس قائمة الأورام التي تصيب النساء. وفي حال ظهور الأول، تشكو المصابة من كتلة غير مؤلمة، يصاحبها نزيف عبر حلمة الثدي، ومفرزات غير مألوفة، أما في حال إصابة الرحم، فيحدث نزيف مصحوب بمفرزات مهبلية شاذة، ويكثر ذلك في صفوف النساء بعد سن اليأس.

كيف يتم تشخيص الإصابة؟

ثمة العديد من وسائل تشخيص إصابة الجسم بداء السرطان، ومن ذلك إجراء فحص سنوي يتم خلاله الكشف على أعضاء الجسم المختلفة كالجلد، والأعضاء التناسلية، والفم، واللسان، والثدي، ويجب التشجيع على ذلك بعد سن الأربعين لدى الذكور والإناث.

وتعد الأشعة إحدى وسائل التشخيص الرخيصة والفعالة في الكشف المبكر عن بعض أنواع السرطان، ومن ذلك سرطان الثدي والرئة. كما يفيد استخدام المناظير في تشخيص سرطانات القصبات الهوائية، والجهاز الهضمي، والمثانة،

والحنجرة، وهي أنابيب مرنة يتم إدخالها إلى أنسـجة الجسم بغية رؤيتها مباشرة بعين الطبيب الفاحص لمعرفة حدوث أية تغيرات خلالها.

ومن وسـائل التشخيص الأخرى: أخذ مسحة (Swab) مما تفرزه الأنسجة من سوائل كما هو الحال في تشخيص سرطان الرئـة، والرحم، والمعـدة، وتفحص تلك المفـرزات مجهريًّا للكشـف عن محتواها من الخلايا، وهي وسـيلة هامة تكشف الورم باكرًا قبل تطوره وانتشاره.

ومـن المفيـد أيضًا، إجراء تحليل لسـائل الدم لتشـخيص بعض السـرطانات، مثل سـرطان الدم المعـروف باللوكيميا، وبعض أورام غدة البروستات.

أمـا وسـيلة التشـخيص ذات الأهميـة القصـوى، فهـي استخدام الخزعة (Biopsy). ويتم هنا أخذ جزء صغير من نسيج الورم وفحصه في المختبر تحت عدسة المجهر، وهي أفضل وسـيلة للتفريق بين الأورام الحميدة والخبيثة، ولمعرفة درجة الورم وتطور نموه ضمن الأنسجة.

الخطة العلاجية للسرطان

يعتقد بعضهم، أنه لا علاج لداء السرطان، وهي قناعة خاطئة غيّـر العلـم الحديـث جانبًا كبيرًا مـن مفرداتها. فقـد تطورتْ وسـائل المعالجة، وأصبح علاج الكثير من حالات السرطان متوافرًا وبخاصة إن تم تشـخيصها باكرًا، وثمة عديد من تلك الطرق والوسائل.

تُعـد الجراحة الخطَّ العلاجـيَّ الأول في العديد من أنواع السـرطان، ويتـم عبرهـا اسـتئصال العضو المصـاب أو جزء صغير منه، وهي أكثر وسـيلة علاجية فاعلة، ولا سيما إن كان التشخيص باكرًا.

ومن وسـائل معالجة السـرطان الأخرى استخدامُ الأدوية الكيماوية، وهي مواد تعمل في وقف نمو الخلايا السـرطانية، وتحد من انتشـارها في الجسم، وتُعطى وفق جرعات خاصة فـي أوقات محددة بحسـب نوع السـرطان ومكانه وانتشـاره، ومـن الأورام التـي تسـتجيب لهـذا العـلاج سـرطان الـدم، والمبيض، والرئة، والغدة الدرقية.

وللأشعة دور في إتلاف الخلايا الورمية عبر إيقاف نموها وتكاثرهـا... ويتـم هنا تسـليط أنواع خاصة منها -مثل أشـعة إكـس ونظائر جاما (Gamma)- مباشـرة عبـر الجلد، أو بزراعة مصادر تبث إشعاعاتها وفقًا لنظام خاص بجرعات محددة... ويتـم تحديد مدة العلاج ونوع الأشـعة المسـتخدمة بحسـب نوع الورم.

وتسـتجيب بعض السـرطانات للعلاج الهرموني، وتُعطى الهرمونـات هنـا لعلاج حالات منتقاة مـن أورام الثدي وغدة البروستات.

وثمة وسـائل علاجية أخرى تعمل في مسـاعدة المصاب على تعزيز مناعة جسمه، وتخفيف الآثار الجانبية التي تخلفها الأشـعة والأدويـة المختلفة، كما يجب الحـرص على الدعم النفْسـي للمريـض، ومَده بمـا يلزمه من الشـحنات الإيمانية، وحثه على الصبر والتسليم بقضاء الله وقدره.

وماذا عن وسائل الوقاية؟

تضـع المراجـع العلمية خطـة وقائية عامة، تسـهم إلى حد ما في الحد من إصابة الجسـم بداء السـرطان. ومما تحث عليه تلك التوصيات؛ الاهتمام بتناول غذاء صحي، والتخفيف من اسـتخدام وسيلة القلي لإعداد الطعام واعتماد وسيلتَي السلق والشـواء عوضًا عن ذلك، والتقليل من تناول الأغذية الدهنية والمياه الغازيـة، والإكثار من الأطعمة الطازجة كالخضروات والفاكهة والزيوت النباتية.

ومن النصائح الهامة أيضًا؛ التخفيف من تعريض الجسـم لأشـعة الشـمس فترات طويلـة، والامتناع التام عـن التدخين وتعاطـي الكحول، وعدم تعريض الجسـم للمـواد الكيماوية الآنفـة الذكر، والمداومة علـى الرياضة، والابتعاد عن مصادر القلق والضغط النفسي.

أخيـرًا، فإنه على الرغم من بلـوغ العلوم الطبية المعاصرة شـأوًا عاليًا في كشـف الغموض عن جوانب كثيرة من أسرار جسـم الإنسـان وعلاج أمراضه، فمـا يزال لـدى المختبرات الحديثة أشـواط هائلة للوقوف على أَلِف باءِ داءِ السـرطان... وهذا يؤكد لنا أن ما أعطاه الله سبحانه لهذا الإنسان من أسرار العلوم، ما هو إلا نزر يسير وأننا ما أوتينا من العلم إلا قليلاً. وتذكَّر أيها الإنسـان، أنـه إذا علّمك الله ما لم تكن تعلمه، فلا يسـتبدن بـك الغرور والتعالـي، لأنك أنت نفسـك دليل على الخالق الأعظم: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١). ■

(*) اختصاصي جراحة التجميل بالمدينة المنورة / المملكة العربية السعودية.



د. يونس ملال*

التفكير السنني
عند بديع الزمان النورسي

درج كثير من الفلاسفة والمفكرين في عالم الفكر الإنساني، على تقسيم العقول إلى نوعين متباينين متناقضين: عقل غيبي ديني (بالمعنى الغربي لكلمة الدين)، وعقل مادي إلحادي، وذلك بالنظر إلى طريقة التفكير وأسسه الكلية تجاه الخالق والمخلوق وطبيعة الخلق وما وراء الخلق، وبالنظر -كذلك- إلى تحديد الموقف والسلوك والحكمة من طبيعة الوجود وكيفية التصرف فيه... هذا هو المناخ المتأزم الذي وضعت فيه الحضارةُ الغربية الإنسانيةَ برمتها، وتركتها في صراع متعدد المستويات معرفيًّا وسلوكيًّا ونفسيًّا.

فأما العقل الغيبي (الديني) فهو لا يؤمن بحتمية الأسباب الجزئية التي يجري عليها نظام الكون -السنن الجارية- ويرجع كل ما يقع في الوجود إلى قدر قاهر وإرادة مطلقة للعلة الأولى. ويضع هذا العقلُ الإرادة الإلهية في مقابل الأسباب المادية وإرادة الإنسان ومعارفه، وكأنه لابد من الاختيار بين أحد أمرين: إما القول بالأسباب الجزئية والإرادة الإنسانية الحرة، وإما القول بالإرادة الإلهية المطلقة وتصريفها لشؤون الكون مع جبرية سالبة وعبثية عارمة. وبديهي أن العقل الديني الغيبي، ينحاز إلى الإرادة الإلهية نابذًا ما وراءها من القول بالأسباب.

وقد تزعم هذا النوع من التفكير اللاهوت المسيحي، كما يظهر جليًّا في كتاب "مدينة الله" لـ"القديس أوغسطين" الذي قسم أحداث الكون إلى ستة أيام سماها "أيام الله" وجعلها حاكمة على تاريخ البشرية، وجعل من الإنسان ريشة في مهب الريح، أو ممثلاً على خشبة المسرح يؤدي دورًا في مسرحية كَتَبَ الربُّ فصولَها.

من هنا، كان ضروريًا في سياق النهضة الأوروبية أن ينتفض أولئك الماديون الذين اتجهوا إلى دراسة سلوك المادة

فـي الكـون، وتأكدوا -عمليًّـا- من وجود الأسـباب وتأثيرها واطرادها باكتشـافهم منهج الاستقراء الذي يقوم على الفرَض والملاحظة والتجربة، وبدأت تتشكل بوادر عقل جديد؛ عقل سببي يشرح الظواهر الكونية شرحًا واقعيًّا معقولاً.

لكـن الجو الفكري والحضاري الذي نشـأ فيه هذا العقل التجريبـي كان جـوًّا موبوءًا، وكان يسـيطر عليـه العقل الغيبي الرافـض للقـول بالسـبب الجزئـي، ويـرى ذلـك فسـادًا فـي الاعتقـاد وتعديًا على إرادة الله... وقد حفظ لنا التاريخ صورًا لذلـك الصـراع المريـر الذي وقع بيـن الفريقيـن، والذي بلغ أوجـه ضمـن ظاهرة محاكم التفتيش، التـي حكمت بكفر من يقول بكروية الأرض وإعدامه حرقًا.

فوضى الحضارة

وهكـذا زجت فوضى الحضـارة الغربية بالإنسـانية في متاهة عقدية وفكرية ونفسـية وحضارية شـاملة، وخيرتها بين أمرين أحلاهمـا مـر، وقضيتيـن الرابـح فيهما خاسـر وهمـا: إما أن تجحـد الله وتعتنق الإلحاد لتلتحـق بركب التفكير العلمي، أو أن تؤمن بالله وتكفر بالعلم.

ومـن الصور الممتدة -إلى يومنـا- في هذا الصراع القائم بيـن العقل الغيبـي والعقل العلمي -الغربييـن- قضية الصراع بين القول بالخلق المباشر المستمر ونظرية التطور لـ"داروين" ومن لف لفه كـ"لامارك" وأتباعه.

لقـد توجه رموز العقـل المادي -الذين عرفـوا ظاهرًا من الحياة الدنيا وغفلوا عمّا سـوى ذلك- بكل كشف علمي إلى إثبات الإلحاد وإبطال الإيمان... فضاع الدين الحق وضاعت مقاصد العلم في إسـعاد البشرية، لأن المناخ الحضاري الذي يؤطرهما لا يتناسـب -كما ذهب "كاريل" في كتابه "الإنسـان ذلك المجهول"- مع طبيعة الإنسـان ولا يناسـب حجمه، بل هو توجه مخالف لفطرة الناس وفطرة الكون جميعًا.

وإذا كان خط التعاسة الإنسانية هذا قد انطلق من الغرب، فإن عالم الشـرق -والعالم الإسـلامي علـى الخصوص- لم يَسلم من هذه الفوضى في التفكير والسلوك الحضاري؛ فكل هـذه الأفكار التي نشـأت في الغرب -أو جلهـا- انتقلت إلى الشـرق، وجـل التيـارات في الغرب نشـأت مثيـلات لها في الشـرق الإسـلامي، خاصـة بعد الفـراغ الحضـاري الذي عم العالم الإسلامي جراء سقوط الخلافة العثمانية.

والـذي زاد الأمـر حـدة، هـو احتـكاك العالم الإسـلامي بالغـرب، إما عن طريق الحركة الاستشـراقية، وإما عن طريق الهجمة البربرية الاستعمارية.

رواد النهوض الإسلامي

مـن هنـا قـام رواد النهضـة والإصـلاح في العالم الإسـلامي لمواجهة هذه الأوضاع غير الطبيعية التي خربت علاقة الناس بربهم وجعلتهم في صراع واغتراب مع الكون الذي يعيشون فيه.

قام رجال الإصلاح لإعادة بناء العلم والإيمان على أسس عقليـة ودينيـة صحيحـة ترفع الغبن والتعاسـة عن الإنسـانية، وتقودها نحو السعادة في آجلها وعاجلها.

والعلامة المفكر المصلح "بديع الزمان سـعيد النورسـي" واحـد مـن ألمـع هـؤلاء المصلحيـن. وقـد رأى أن الالتجاء إلـى القـرآن الكريم واسـتخراج المعرفة والهدايـة منه، هو ما سـيحقق أقصر الطرق إلـى الله، وبالتالي المصالحة مع النفس ومع الكون الذي خلقه الله جَلَّ جَلَالُهُ.

وقبـل أن نعـرض أسـس العقل السـنني عند بديـع الزمان -طيب الله ثراه- وثمرات هذا العقل على نفس الفرد والجماعة وخير الكون كله، نلقي بعض الضوء على طبيعة العقل الثالث الذي يعرضه الإسلام أعني: (العقل السنني).

فما هو العقل السنني الإسلامي الذي يغاير العقل العلمي الملحد والعقل الغيبي الخرافي؟

طبيعة العقل السنني الإسلامي عند بديع الزمان

إن أهـم مـا يميـز هـذا العقـل السـنني هـو الإيقـان بالحقيقة الوجودية لنظام الكون المادي والبشـري، وانبناء الوجود على سـنن وقوانين ثابتـة ومطردة، ولكنه لا يفصلهـا عن الله الذي خلـق ونظم وبث السـنن، ولا يصـادر إرادة الله في خرقها إذا شـاء عَزَّ وَجَلَّ، ولا يجعـل قـدرة الله محكومـة بقوانيـن الكون، بل حاكمـة لها، كما يجعلها مدخلاً لمعرفـة الذات الإلهية، ومن ثم معرفة الإنسان لنفسه ووظيفته في الوجود.

لذلك فالمسلم يشغف بالعلوم، وتهفو نفسه إلى الاستزادة منها على أساس أنها غذاء للإيمان الحق بالله، وعلامات على قدرته ودلائل أسـمائه الحسـنى وصفاته العلا... وفي رسائل النـور للعلامـة بديـع الزمـان كلام مشـرق واضح فـي تجلي أسـماء الله في الكون وقراءة قوانينه على هذا الأسـاس، وفي هـذا توسـيع لمقاصـد العلم مـن المنفعة الماديـة الضيقة إلى الغذاء الروحي والسعادة الإنسانية المطلقة الرحبة والأبدية.

إن بديع الزمان ينأى بالعقل المسلم عن الغربة المفتعلة بين

الإيمان والعلم، لأنه قد اكتشف الخطأ الجامع بين العقلين الملحد والخرافي، وهو التصور الخاطىء لحقيقة الألوهية، لذلك نجده يقول: "نعم من يجد الله فقد وجد كل شيء، فما الموجودات جميعها إلا تجليات أسمائه الحسنى ﷻ". ومفهوم المخالفة لهذا الكلام، أن من لم يجد الله لم يجد شيئًا، وإن توهم ذلك فسرعان ما يظهر له خطأ توهمه عندما يجني ثمرات تفكيره وسلوكه شوكًا وتعاسة وظلمة في النفس، وخرابًا في العمران، وبيعًا لسعادة أبدية بساعة من الدنيا لا تخلو من كدر ومشقة وحزن، بل إن نهايتها موت وعدم.

إن الثقة في الله والسير في ركاب منهجه، هو الحال الذي يشاهد عليه الكون كله وهو مسلم لله مستسلم لحكمه، والإنسان عليه أن يكون كذلك مستسلمًا لله واثقًا به حتى يتماهى مع الكون ولا يكون نشازًا في الخلق فتجافيه كل المخلوقات، أو تتحول في تصوره إلى آلة صماء بدل الخلق الحي الحكيم.

العلم والعمل

إن بديع الزمان لا يقصد -فقط- بمشروعه النهضوي تجاوز عقدة ثنائية العلم والدين في أزمة العقل الحديث، كلا، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك بكثير حين يؤسس لعقل سنني إسلامي يجمع العلم والعمل، كما يؤسس لمنهج تربوي إيماني -علمي وعملي- مبني على معرفة صحيحة بالله، ومعرفة صحيحة بالكون، ووضع صحي للعلم ومقاصد العلم، لذلك نجده يقول أيضًا: "إن لكل كمال ولكل علم ولكل تقدم ولكل فن -أيًا كان- حقيقة سامية عالية، وتلك الحقيقة تستند إلى اسم من أسماء الله الحسنى، وباستنادها إلى ذلك الاسم -الذي له حجب مختلفة وتجليات متنوعة ودوائر ظهور متباينة- يجد ذلك الاسم والفن والكمال والصنعة كماله، ويصبح حقيقة فعلاً، وإلا فهو ظِل ناقص مبتور باهت مشوش".

هكذا يعلن النورسي في وضوح أن حقيقة العلم -أيّ علم- هي حقيقة ناقصة وشائهة ما لم ترتبط بالحقيقة السامية العالية، وهي حقيقة الألوهية التي تتوسع في ظلها مقاصد العلم كما ذكرنا. "فالهندسة -مثلاً- علم من العلوم حقيقتها وغاية منتهاها هي الوصول إلى اسم الله العدل والمقدّر من الأسماء الحسنى، والبلوغ إلى مشاهدة التجليات الحكيمة لذلك الاسم بكل عظمتها وهيبتها في مرآة علم الهندسة.

والطب -مثلاً- علم مهارة ومهنة في الوقت نفسه، فمنتهاه وحقيقته يستند أيضًا إلى اسم من أسماء الله الحسنى وهو "الشافي". فيصل الطب إلى كماله ويصبح حقيقة فعلاً بمشاهدة التجليات الرحيمة لاسم الشافي في الأدوية المبثوثة على سطح الأرض الذي يمثل صيدلية عظمى.

والعلوم التي تبحث عن حقيقة الموجودات -كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان- التي هي حكمة الأشياء، يمكن أن تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله الحكيم ﷻ في الأشياء، وهي تجليات تدبير وتربية ورعاية. وبرؤية هذه التجليات في منافع الأشياء ومصالحها، تصبح تلك الحكمة حكمة حقًا... وإلا فإما أنها تنقلب إلى خرافات وتصبح عبثًا لا طائل من ورائها، أو تفتح سبيلاً إلى الضلالة، كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية". تأمل كيف يؤسس للعقل الإيماني بوعي كبير ووضوح تام يجعله بديلاً مصححًا للخرافة -العقل الغيبي- من جهة وللإلحاد -العقل المادي- من جهة أخرى.

القرآن وآيات الكون

إن الزاد الأول والأساس لبديع الزمان في هذا التصور هو القرآن الكريم، فهو يرى الآيات الكونية مبثوثة في كتاب الله، والقرآن يلفت نظر الإنسان إلى ما بث الله في الكون من آيات النظام، التي ترتبط فيها الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج، ويطرد ذلك ويتكرر بدقة متناهية وبقدر وميزان عجيب، وذلك كلما تعاقبت الأيام والفصول والسنوات: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(الحج:٥)، وليس هذا في عالم المادة فحسب، بل إن القرآن يخص سلوك البشر في التاريخ -أفرادًا وأممًا- بلفظة السنة في ستة عشر موضعًا منها قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾(فاطر:٤٣).

إن الكون إذن في التصور القرآني الإسلامي مبني على سنن وقوانين ونظام بديع... وهذا النظام لا يحتمل العقلُ القولَ بأنه جاء مصادفة أو عبثًا كما تقول نظريات العقل (العلمي) الملحد، التي رفضت أن تفسر ظواهر الكون

الجزئية على أساس المصادفة أو التقدير ابتداء. ولكن ها نحن نجدها في قضية خلق الكون حين عجزت عن تفسير مبتدأ النشأة والخلق، تنقلب على منهجها الحتمي الصارم، وتقول بالمصادفة في نشأة الكون، فتخون منهجها فيما يرتبط بتفسير بداية الخلق! لا لشيء إلا لأنها كما قال بديع الزمان: "لم تجد الله فوقعت في العدمية والتناقض الصارخ".

إن القرآن يقرر أن هذا النظام هو أكبر دليل على المنظم وهو الله ﷻ الذي خلق الوجود وقدر فيه الأقدار... من هنا لا تأخذ أسباب العلوم المادية والاجتماعية في ضوء التصور القرآني طابعًا حتميًّا ينبني على الضرورة العقلية، وتنتج عنه المنفعة المادية، وينتهي بالتعاسة البشرية، كلا... بل تأخذ السنن طابعًا حتميًّا عمليًّا، ينبني على الضرورة الشرعية، وضمان الله بثبات السنن بصريح نصوص القرآن، وينتج عنه محتوى إيماني وطمأنينة نفسية ونظام اجتماعي بديع ينسجم مع وظيفة الاستخلاف وغاية العبودية لله في الأرض.

أساس العقل السنني عند بديع الزمان

الإيمان أساس التفكير العلمي المنظم، أي أنه لا أساس للعقل الملحد الذي يكابر الحقائق، ويبني رؤيته للأسباب الطبيعية على وهم أنها قائمة بذاتها، ويسند إليها وظائف الألوهية، وبذلك يزج بالإنسانية في متاهة من الضياع لا آخر لها ولا منقذ إلا الإيمان بالله، والسعي الحثيث إلى معرفته ومعرفة مطلوبه، والعمل المتفاني على تحقيق ذلك المطلوب.

كيف اكتشف العلم الطبيعي أن الكون مبني على قوانين منظمة؟ إنها الملاحظة والتجربة العملية في عالم الحس. والعلم يتبع المعلوم، فما الأساس الذي جعل العقل الطبيعي يرفع القوانين إلى درجة اليقين العقلي الذي ليس بعده إلا الخرافة؟ ثم يلحق بهذه الخرافة معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء!.. بل وبنى الطبائعيون على ذلك، جبالاً من الأوهام وصلت إلى حد تأليه الطبيعة ونكران الله، أو تحييد قدرته عن الوجود وجعله إلهًا بلا إرادة فاض عنه الوجود بالطبع كما يفيض عن الشمس نورها.

إن الاستقراء الناقص الذي بنيت على أساسه تجارب البشر وعلومهم، متواضع جدًّا بالنظر إلى غطرسة الفلسفة الطبيعية وتعملقها على الأديان، فهو لا يقود إلى اليقين عقلاً لأن نتائجه أكبر بكثير من مقدماته، وهذا حتى قبل -أو من دون- أن تحكم عليه تعاليم الأديان.

ثم ما هي النتيجة التي تحققت من جراء هذه المذاهب الملحدة؟ هل أسعدت الإنسانية؟ هل أشبعت رغبتها في البقاء والخلود؟ كلا... إن حصيلتها هي وسائل حضارية ضخمة تفتقد إلى الرؤية الصحيحة في مجالات وأهداف استعمالها، وتوظفها في أكثر الأحيان في الشر والتدمير لذاتها ولبني البشر، وكان للبشرية حظ في أن تسعد بأقل القليل من هذه الوسائل لو أسلمت أمر قيادتها لله ومنهجه، وحظيت بتوفيقه ورضاه... إن تنكرها لهذا النهج جعلها نكبة على البشرية تدفع بها للتعاسة والانتحار، فالحياة عندها تبدأ بالصراع ينتهي الرابح فيها بالخسارة التامة حين يوارى التراب وينتهي في ظلمات العدم. وهل تحتاج حياة كهذه لأن يحياها الإنسان؟ ما أظلم الحياة وأوحشها تحت لهيب الإلحاد المحرق.

إن الإنسان عند بديع الزمان، بين طريقين لا ثالث لهما، فهو بمثابة من يتحرك داخل سلطنة هي الكون والوجود برمته، فإذا أخذ إذنًا من السلطان وسار وفق توجيهاته كان سعيدًا مطمئنًّا آمنًا، وكانت جنود السلطان -وهي عناصر الكون- خادمة له معينة. وإذا كابر وسار يدعي تجاوز المخاطر وهو داخل ملك لم يصنعه ولا له الحق فيه، وجد كل شيء في طريقه واقفًا يمنعه ويصده، وحدث له من التعاسة ما لا يقدر على صده إلا بالرجوع إلى السلطان، فتقطعه الندامة والحسرة... إن هذه الصورة الرمزية التي يضربها النورسي كمثل في الكلمة الثالثة، هي تفسير لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾(طه:١٢٣-١٢٦).

إن الثقة في الله والسير في ركاب منهجه، هو الحال الذي يشاهد عليه الكون كله وهو مسلم لله مستسلم لحكمه، والإنسان -وهو خلْقٌ من مخلوقات الله- عليه أن يكون كذلك مستسلمًا لله واثقًا به حتى يتماهى مع الكون ولا يكون نشازًا في الخلق فتجافيه كل المخلوقات، أو تتحول في تصوره إلى آلة صماء بدل الخلق الحي الحكيم. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة أدرار / الجزائر.

المراجع

(١) كليات رسائل النور، لبديع الزمان النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

حليمة العلمي*

تربية رصينة للفرد، وإرهاف لأحاسيسه ومشاعره، وصقل لمواهبه الفكرية، وإعمار لوجدانه، وتحفيز لضميره، هذه هي مقومات رقي الأمم، فكيف ترقى أمة إذا كان أفرادها ضيّقي الآفاق، خامدي الأحاسيس والمشاعر، وميّتي الضمير والوجدان!؟

(الموازين)

* * *

أنماط التعامل مع القرآن

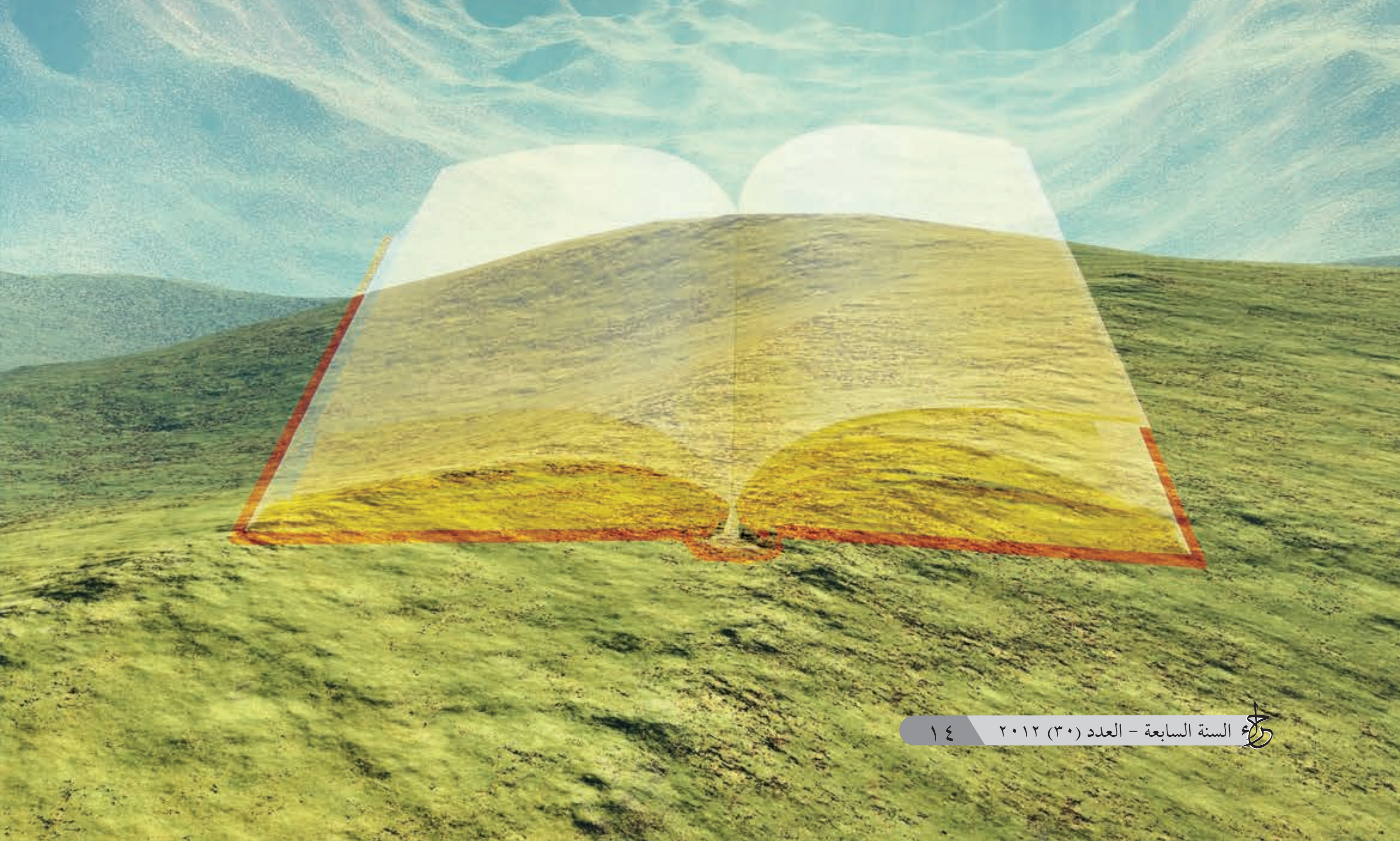
١

القرآن في الأصل مصدر على وزن "فُعلان" بالضم، كـ"الغُفران" و"الشكران" و"الثكلان"؛ تقول: قرأته قرءًا وقراءة وقرآنًا، بمعنى واحد، أي تلوته تلاوة. وقد ورد استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾(القيامة:١٧-١٨)، أي قراءته.

وقد روعي في تسميته "قرآنًا" كونه متلوًّا بالألسن، كما روعي في تسميته "كتابًا" كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين شيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أي يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءًا بنبيها، بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز.[1]

ولا ينبغي أن يكون القرآن الكريم سوى كذلك، لأنه أولاً: كتاب الله تعالى الذي تكفّل هو سبحانه بحفظه وليس كتاب بشر، ثانيًا: لأنه مَعِينٌ لا ينضب، وخزانة للحق



لا تفرغ ولا تنفد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان:٢٧)، وقال رسول الله ﷺ: "كتاب الله فيه نبأ مَن قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، الذي مَن تركه من جبار قصَمَه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخلَق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي من قال به صدَق، ومن حكم به عدَل، ومن عمل به أُجِر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم".(٢)

القرآن كنز مخفي

ومع الحفظ السابق ذكره، ما زال القرآن الكريم كنزًا مدفونًا عند الكثير من المسلمين لم يتفاعلوا معه التفاعل اللازم، ولم يستخرجوه بعدُ الإخراج الحضاري المطلوب، ولم يطلعوا على ما فيه من القيم العظيمة التي أودعها الله فيه بالشكل الواجب... فمن الناس من يقرأ القرآن لينال أجر التلاوة فقط، ومنهم من يحفظ آياته لينال أجر الحفظ فحسب، ومنهم من يقرأ القرآن ليتذوق حلاوة هذا النظم العجيب ويتعلم من بلاغته وأسلوبه أمور البلاغة والبيان لا غير، ومن الناس من يقرأ القرآن باحثًا عن أخلاقيات تحسن سلوكه أو تقومه، ومنهم من يقرأ القرآن يبغي به حل مشكلاته.

ومع الاعتبار الواجب لهذه الأمور المطلوبة جميعها، فإنه لابد من التأكيد على وجوب التوقف مع القرآن لاستخراج التصورات الإسلامية الحضارية، والمفاهيم العظيمة التي من شأنها أن تعدِّل المسيرة الإسلامية نحو الإسهام الجاد في الحضارة. يجب -من خلال القرآن- تلمس القيم التي ينشأ عليها الفرد المسلم من أجل بنائه حضاريًّا لتبليغ الرسالة.

إننا في غمرة تلاوة القرآن ما بين جهل بألفاظه ومعانيه وبين مرور سريع يمنع التدبر في أعماقه. لذلك ما زالت كثير من التصورات الإسلامية في هذا القرآن مجهولة للكثيرين، الأمر الذي ينبغي أن يولي الأهمية الكبرى؛ إذ به يتم تجاوز التعامل المشين مع القرآن الذي يبغي به بعض العوام -وحتى كبار المثقفين للأسف الشديد- البركة والتقديس فقط دون التزام وامتثال.

وهنا لا ينبغي تفويت الفرصة دون الإشارة إلى أن أية محاولة لفهم الإسلام أو إصلاح أحوال المسلمين تتجاوز القرآن العظيم أو تهجره أو تتخطاه أو تقرؤه بنفس الأعين التي تقرأ بها معلقات امرئ القيس وطرفة وخمريات أبي نواس، لن تفضي إلى الوعي الحضاري بالقرآن وهي قراءات ومحاولات سيكتب لها الفشل. ومرحلة التغيير في هذا الاتجاه التي دُشِّنت -من قِبل القوى التي تمثل هذه الاختيارات في التعامل مع الإسلام والقرآن خاصة- منذ الاستقلال إلى اليوم، تؤكد هذه النتيجة وتعززها.

لقد استمد العلماء -كل في مجال تخصصه- معارف مختلفة من القرآن الكريم واستندوا إليه، وعالجوا قضاياهم من خلاله تبعًا لما وصل إليه التطور الفكري التاريخي في عهودهم.

هذا وإن الذي يقرأ القرآن في إطاره الشمولي، غير الذي يقرؤه قراءة انتقائية تسلخ الآيات عن سياقها الكلي. كما أن الذي ينظر إليه قصصًا وتشريعًا وترغيبًا وترهيبًا، غير الذي ينظر إليه جامعًا شاملاً خالدًا مجردًا عن حدود الزمان والمكان يغطي الوجود الكوني وحركته... باعتبار أن القرآن هو العامل الحاسم في الوعي بالكون وحركته وعلاقاته من خلال تحولات الزمان والمكان.(٣)

القرآن يكسر أقفال العقول الموصدة

قد تكون مشكلة المسلمين اليوم في منهج الفهم المؤدي إلى تدبر القرآن الكريم والتعامل معه. من أجل ذلك لابد من كسر الأقفال الموصدة للعقول والقلوب من أجل الاستجابة وتحديد وسيلتها، ليكونوا في مستوى القرآن، ويحققوا الشهود الحضاري، ويتخلصوا من الحال التي استنكرها القرآن حين قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمد:٢٤).

هذا وقد يكون من أخطر الإصابات التي لحقت العقل المسلم فحالت بينه وبين التدبر وكسر الأقفال، ووضع الأغلال والآصار، والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة، والاغتراف منه لعلاج الحاضر، واعتماده مصدرًا للمعرفة والبعث الحضاري... التوهّمُ بأن البناء الفكري القديم الذي استمد من القرآن في العصور الأولى هو نهاية المطاف، وأن إدراك أبعاد النص مرتهن بهذا الفهم في كل زمان ومكان، وذلك مثل ملازمة الحديث عن النهي عن القول في القرآن بالرأي، وجعل الرأي دائمًا قرين الهوى وسوء النية وفساد القصد. وفي هذا ما فيه من محاصرة للنص القرآني، وقصر فهمه على عصر معين وعقل محكوم برؤية ذلك

العصر، وحجر على العقل وتخويف من التفكر... الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب في القرآن. هذا علاوة على أن الاقتصار على هذا المنهج في النقل والتلقي والفهم، يحاصر الخطاب القرآني نفسه، ويقضي على امتداده وخلوده وقدرته على العطاء المتجدد في الزمن، ويلغي بُعدَه المكاني: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(سبأ:٢٨) وبُعدَه الزماني كذلك، بل ويلغي التكليف القرآني أيضًا؛ التكليف المؤسس على وجوب النظر في البواعث والعواقب. وكذا النظر في الأنفس والآفاق، والاكتشاف المستمر للسنن والقوانين، والتعامل معها في ضوء العطاء العلمي، والكشوف البشرية في إطار علوم الكون والحياة:(٤) ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣).

إن تسرب هذه القناعة، من التحديات الكبرى التي تجب مواجهتها والتخلص منها ليتخلص العقل من قيوده ومكبلاته، فينطلق من خلال الرؤية القرآنية اتجاه آفاق الحياة بأبعادها المختلفة، ومن ثم يُنضج معرفة وحضارة مستمدة من الوحي المعصوم. إن استمرار مثل هذا الفهم لا يلغي الحاضر فحسب، إنما يحكم أيضًا على المستقبل بالموت، ذلك لأنه يُسقط -بوعي أو دون وعي- عن القرآن صفة الخلود الزماني والامتداد المكاني.

القرآن يدعو إلى استشراف المستقبل

إن الدعوة إلى محاصرة العقل بقصر الفهم والإدراك والتدبر على فهوم السابقين، هي التي ساهمت بقدر كبير في الانصراف عن تدبر القرآن بالشكل الحضاري المطلوب، وأقامت الحواجز النفسية المخيفة التي حالت دون النظر فيه، وأبقت الأقفال على القلوب.(٥) والإسلام لا يقبل من المسلم أن يلغي عقله ليجري على سنة آبائه وأجداده، كما لا يقبل منه أن يلغي عقله خنوعًا لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضي العقل والدين، ولا يقبل منه أيضًا أن يلغي عقله رهبة من بطش الأقوياء وطغيان الأشداد.

إن موضوع القرآن هو صياغة الإنسان، ووظيفة الإنسان هي القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير وحسن التعامل معها. لذلك فرض القرآن النظر والتدبر والملاحظة والاختيار وإدراك علل الأشياء وأسبابها وامتد في ذلك إلى استشراف المستقبل.

إن هذه الموانع والعوائق كلها، سواء التي فرضها التقليد والعرف أو الخوف، إنما تقوم وتبقى ما هان على الإنسان أن يعيش بغير عقل يرجع إليه في أكرم مطالبه.(٦)

لقد أصبحنا أتباعًا مقلدين غير قادرين ليس فقط على تجاوز فهم السابقين والامتداد بالآيات إلى آفاق جديدة، وإنما عاجزين أيضًا عن الإثبات بمثال آخر غير ما جاء به الأقدمون، وهذا من أشنع حالات التقليد. وكما أن مناخ التقليد الجماعي، جعلنا عاجزين عن الفهم ودون مستوى التعامل مع القرآن، فكذلك أصبحنا دون مستوى التعامل مع الواقع؛ لأننا عطلنا عطاء القرآن للزمن المتغير السريع، وحاولنا التعاطي معه بفهوم عصر آخر يختلف في طبيعته ومشكلاته وعلاقاته ومعارفه عن عصرنا، وأصبغنا صفة القدسية والقدرة على الامتداد والخلود للاجتهاد البشري ونزعناها عن القرآن.

إن موضوع القرآن هو صياغة الإنسان، ووظيفة الإنسان هي القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير وحسن التعامل معها. لذلك فرض القرآن النظر والتدبر والملاحظة والاختيار وإدراك علل الأشياء وأسبابها وامتد في ذلك إلى استشراف المستقبل.

الدعوة إلى التعامل مع القرآن

إن هذه الدعوة للتعامل مع القرآن الكريم -بالشكل السالف الذكر- ليست دعوة للقفز على عطاءات السابقين من الأعلام المخلصين لهذا الدين، لأن منهم من تجاوز بعطائه عصره، لذا لابد من الرجوع والاستنارة والاقتداء بهم. ومما ينبغي الاقتداء بهم فيه، وجوب التعامل مع القرآن الكريم كما تعاملوا هم معه، أي بما فرضه ظرفهم ومعطياتهم الحضارية آنذاك. ولو أن علَمًا منهم قام لاستنكر كثيرًا من هذه الصنميات التي تصطبغ بها أقواله واجتهاداته، من طرف أناس جعلوا كل الأبواب موصدة على الماضي، وجعلوا القرآن قرين الماضي وأهله.

لا ينبغي أن يفهم من هذه الدعوة أنها دعوة للاجتهاد

الذي لا ضوابط له ولا أسس ولا أصول، إن من شأن ذلك أن يجعل من التعامل مع القرآن الكريم دعوة لا تختلف كثيرًا عما تدعو إليه القوى التي تريد أن يكون القرآن الكريم كتابًا لكل الفهوم غير المؤصلة وغير المؤسسة، بل حتى تلك التي تريد أن تفجره من الداخل.

إن التعامل مع القرآن الكريم، ينبغي أن تكون له أهداف ومقاصد وأصول مشروعة، يلزم أن تكون القراءة مؤسسة منضبطة لقواعد، وليست دعوة للسيبة في التفكير والتحليل أثناء التعامل مع القرآن الكريم.

وإذا كان القرآن -كما سلف- أن وصف الرسول الأكرم عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم، فلابد من التعامل معه باعتباره كتاب الله تعالى وليس كتاب بشر، ثم التعامل معه باعتبار أن فيه حكم ما بيننا، أي هو تشريعنا لا نتركه كي لا نكون عرضة لحكم الله في الجبارين، ولا ينبغي أن نضل فنبغي الهدى في غيره، إذ هو الحبل المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم. كما ينبغي التعامل معه على أنه كنز لا يفنى ولا يشبع منه الناس، ولا تنتهي عجائبه. ولابد أيضًا من التعامل معه باعتباره مصدرًا للعمل والممارسة والتنفيذ.

إن قرآنًا هذه مواصفاته، لا يجوز أن يغتال العقل في التعامل معه، كما لا يجوز حبسه في قراءات الماضي، لأنه كتاب للأحياء. ■

(*) كاتبة وباحثة مغربية.

الهوامش

(1) النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، للدكتور محمد عبد الله دراز، الطبعة السابعة، ص:١٢-١٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

(2) سنن الدارمي:٢/٤٣٥، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، الطبعة الثالثة:١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص:١٦٤.

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة:١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص:٥/٢٥٣.

(3) كيف نتعامل مع القرآن، في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة لمحمد الغزالي، الطبعة الأولى:١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص:٧-٨.

(4) المصدر نفسه، في المقدمة، بقلم عمر عبيد حسنة، ص:١٥-١٦.

(5) المصدر نفسه، ص:٢٠-٢١، بتصرف.

(6) التفكير فريضة إسلامية، لعباس محمود العقاد، دار الهلال، ص:١٨، بتصرف.



وإذا الكواكب انتثرت

نَجْم هوى،
وفي سحيق المجهول اختفى...
شذَّ، وعن مجموعته النجمية، نَدَّ وخرج،
ثم التهب، واحمرَّ واحترق...
ماذا لو اضطرب الناموس،
واختلَّ النظام، وتَفَلَّتَتْ النجوم،
وعن مساراتها ابتعدت وحادت،
ثم تساقطت الواحدة تلوَ الأخرى؟!
لكنه الناموسُ هو الناموسُ لا يتغير،
وإرادة الله فاعلة لا تتبدل...

* * *

إبراهيم أوغورلو*



ماذا لو لم نعرق؟

لقد خُلق الجلد بصورة ملائمة لكي يستجيب لجميع المنبهات الآتيـة إليه من الداخل ومن الخـارج، وهـو مـن أكثـر الأعضـاء احتـواءً للخلايـا. والعـرق سـائل بلا لـون وبلا رائحة يتـم إفرازه عن طريـق الغـدد العرَقيـة البالغ عددهـا مليونين ونصـف مليون غدة، وتنتشـر في الجسـم بنسبة مئة غدة في كل سنتمتر مربع. وتتـوزع هـذه الغدد على الجسـم بشـكل متـوازن، ولكنها لا توجد في حلمة الصدر، ولا في الأجفان، ولا الشفاه، وكذا لا توجد في الأعضاء التناسـلية. وهنـاك حِكم في عدم وجودها في هذه المناطق من الجسـم؛ فمثلاً، عندما يرضع الطفل من ثـدي أمه، لا يضطـر إلى مص الجلد الـذي اختلط فيه الملح الآتـي من العرق، أي لا يمص الملحَ مع الحليب. ولو كانت الغدد العرقية موجودة على الشـفاه، لاضطر الإنسان إلى لعق شفتيه المتعرقتين على الدوام.

بنية الغدد العرقية

تتكـون غـدة العـرق ذات الشـكل الأسـطواني (أي الأنبوبي) من قسـمين: القسـم الملتوي تحت الجلد الذي يفرز العرق، والقسـم الأنبوبي الذي يمتد في القسـم الخارجي من الجلد، أي فـي "البشـرة" (Epidermis)، وفـي القسـم الداخلي، أي في "الأدمة" (Dermis).

وكمـا فـي غدد أخـرى، تقوم الغـدة العرقية بإفراز سـائل أولـي، ويقوم هذا السـائل عند مروره بالقسـم الأنبوبي بتغيير كثافة المواد الموجودة هناك.

أنواع الغدد العرقية

يوجـد نوعـان من الغـدد العرقية في أجسـادنا، نـوع "أكرين" ونوع "أبوكرين"؛ يوجد النوع الأول في جميع مناطق الجسـم ولا سـيما في باطن الكف وفي أخمص القدمين، ويفرز مادة "ماروكريـن" مـع قليـل من السـايتوبلازم، ويبلـغ عددها أكثر مـن مليونيـن. تبدأ هذه الغدد بالتكون ثـم بالتكامل في منطقة بشـرة الجلد بـدءًا من الشـهر الثالث من عمـر الجنين، وتبدأ عملها بعد الولادة بعدة أسابيع، حيث توجد في إفرازات هذه الغـدة الماء والصوديوم والبوتاسـيوم والكلـور والبيكربونات والإدرار وحوامض أمينية.

يتطور النـوع الثاني من الغدة العرقية -التي تفرز إفرازاتها إلـى الخارج مع كمية من السـايتوبلازم- في الشـهرين الرابع والخامـس مـن الحمل. وتوجد هذه الغـدة في الإبط وبجوار الحلمة والفم، وتفرغ إفرازها عادة في بصلة الشعر، ويحتوي

إفرازها الشفاف -الذي يستمد رائحته من فعاليات البكتريات- على البروتينات والكربوهيدرات والأمونيا والحديد.

تنتج الرائحة المميزة لكل إنسان بواسطة هذه المواد، وتتعرف الكلاب وبعض الحيوانات الأخرى على أصحابها بفضل هذه الرائحة... ونظرًا لأن هذا الإفراز مرتبط بالمنبهات الهرمونية والعاطفية، وتعمل بالارتباط مع الهرمون الذكري، فهو يبدأ بعد سن البلوغ.

لماذا نعرق؟

عملية التعرق عملية توازنية وُضعت في الجسم لتحقيق بقاء حرارة الجسم ضمن الحرارة المطلوبة للجسم، أي لتأمين راحة الجسم، وهي تعمل ضمن آليات عديدة لتأمين هذا الأمر. إن عملية التعرق عملية تبريد للجسم، فعند الدخول إلى وسط حار تبدأ بعض نُظم الجسم بالعمل مثل "الترموستات"، وتنظّم وتوازن حرارة الجسم.

درجة حرارة جسم أي إنسان يتمتع بالصحة، تكون مستقرة، ونادرًا ما يتجاوز الاختلاف الحراري نصف درجة مئوية؛ إذ يجب المحافظة على حرارة الجسم مهما كان الوسط حارًّا ضمن حدود ضيقة ومعلومة.

وتبلغ درجة الحرارة في داخل جسم الإنسان البالغ عند سكونه وعدم حركته؛ (٣٧) درجة مئوية، بينما تتغير حرارة جلد الإنسان ضمن حدود (٢٥-٣١) درجة مئوية. ويعود فضل اتزان هذه الحرارة إلى غدة "هايبوتلاموس" (Hypothalamus) (أي إلى غدة ما تحت السرير البصري). وهذه الغدة جزء من القسم الوسطي للدماغ، وتزن (٤) جم تقريبًا، وقد وُضع فيها مركزان، المركز الأول في القسم الأمامي منها ووظيفته صيانة الجسم من ازدياد الحرارة، والمركز الثاني في مؤخرتها ووظيفته صيانة الجسم من انخفاض الحرارة.

عندما لا تكون هناك حرارة كافية حول الجسم، تبدأ آلية التعرق بالعمل فتتوسع شرايين الدم، ويزداد انسياب الدم في العروق بنسبة ضعفين أو ثلاثة أضعاف، وهكذا يتم نقل الحرارة من الأقسام الداخلية للجسم إلى الأغشية الخارجية له.

ويوجد في جلد الشخص البالغ عندما يكون في حالة راحة وفي ظروف طبيعية، ما يقارب (٥-١٠٪) من الدم المار من القلب في الثانية الواحدة. وعندما تزداد الحرارة زيادة كبيرة، يرسل القلب (٥٠-٦٠٪) ما يأتيه من الدم إلى الجلد، فإن استمرت درجة الحرارة في الارتفاع داخل الجسم على الرغم من هذا، يبدأ الجسم بإفراز العرق.

ولكن هناك عوامل تؤثر على عملية التعرق التي تعد وسيلة مهمة للتبريد، منها الملابس التي تعرقل وتقلل عملية تبخر الماء، وكذلك نسبة الرطوبة في الجو. إن ارتفاع حرارة الجسم درجة واحدة، يؤدي إلى زيادة نبض القلب (١٨) نبضة في الدقيقة تقريبًا.

ولكي تتم صيانة حرارة الجسم في حدود معينة وباستمرار، فقد وضع الخالق ﷻ منظومات عديدة في الجسم تعمل بشكل مشترك لتحقيق هذا الأمر. فمثلاً، يقوم الإنسان الذي يشعر بالحرارة، بلبس الملابس وبتقليل حركته، وبالبحث عن مكان بارد.

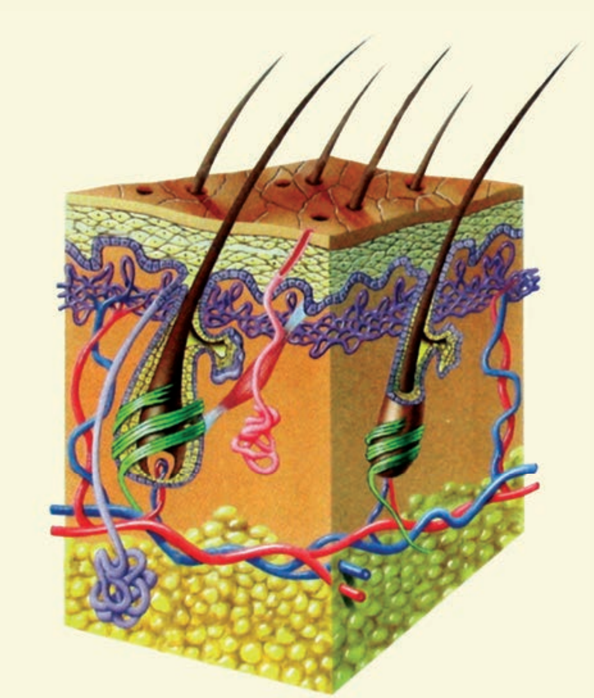
يؤدي كل جرام من الماء المتبخر، إلى فقدان الجسم (٥٨٠) سعرًا حراريًّا. وحتى إن لم يشعر الإنسان بأنه يعرق، فهو يعرق في الحقيقة؛ حيث يتبخر من الرئة كل يوم من (٤٥٠-٦٠٠) ملجم من الماء.

عندما تكون حرارة الجلد أكثر من حرارة الجو المحيط به، فهو يفقد الحرارة إما بواسطة طريقة الإشعاع أو بواسطة "التوصيل الحراري". أما إن كانت حرارة الجو أكثر من حرارة الجلد، فلا يمكن فقد حرارة الجلد عن طريق الإشعاع أو التوصيل الحراري، على العكس، يكون الميل إلى اكتساب مزيد من الحرارة. في هذه الحالة تكون الطريقة الوحيدة أمام الجلد للتخلص من الحرارة، هي التعرق وعملية تبخير العرق... وهكذا تصل حرارة أجسادنا إلى المستوى الاعتيادي للحرارة.

تأثير الملابس على حرارة الجسم

تقوم طيات الملابس بالاحتفاظ بجزيئات الهواء فيها، وهذا يؤدي إلى زيادة سمك طبقة الهواء حول الجلد، ويؤدي بالتالي إلى تقليل سرعة فَقْد حرارة الجسم عن طريق التوصيل الحراري. تقوم الملابس بتقليل فَقْد حرارة الجسم إلى النصف، أما الملابس التي تُلبس في المناطق القطبية فتقلل فَقْد الحرارة إلى السُدس.

وقد نجح الإنسان بواسطة مخترعات عديدة، في تخطي مشاكل الحرارة السائدة في مختلف المناطق الجغرافية. أما الحيوانات التي تعيش في المناطق القطبية؛ مثل الدب القطبي وطائر البطريق والفقمة... فقد وهبها الخالق جلدًا ملائمًا لتلك البيئة الباردة، وريشًا عازلاً للحرارة، وطبقة دهنية سميكة تحت الجلد.



غدد الجلد الكبرى

تنتقل نصف الحرارة تقريبًا من الجلد إلى الملابس، عبر المسافة الصغيرة بينهما عن طريق الإشعاع وليس عن طريق التوصيل الحراري. لذا فإن غلّفنا الملابس بطبقة رقيقة من الذهب، زاد العزل الحراري للملابس بشكل كبير. وبهذه الطريقة يمكن تقليل وزن الملابس المستعملة في المناطق القطبية إلى النصف.

كما أن الملابس الفضفاضة تزيد من العزل الحراري؛ لأنها تزيد من سمك الطبقة الهوائية الموجودة بين الجسم والملابس... فإن كانت الملابس ضيقة يَحدث العكس، أي يزيد فَقْد الحرارة ويصعب المحافظة على حرارة الجسم؛ حيث يبدأ الجسم بالشعور بالبرد. والشيء نفسه يرد عندما يحاول سكان الصحراء، المحافظة على أنفسهم من الحرارة الزائدة، لذا يلبسون ملابس فضفاضة تغطي الجسم كله.

إن تبللت الملابس فقدت كل قابليتها تقريبًا على الاحتفاظ بالحرارة؛ لأن الماء يقوم بزيادة فَقْد الحرارة إلى أكثر من عشرين ضعفًا. لذا ففي المناطق الباردة يتم الاهتمام والعناية بحفظ الملابس من البلل من أجل صيانة الجسم من البرد. ويتم الأخذ بنظر الاعتبار عدم التعرض إلى الريح عندما تكون ملابس الإنسان الداخلية مبتلة بالعرق؛ لأن هذا البلل يخفض من قابلية العزل الحراري كما قلنا.

ومن جانب آخر تقوم الملابس الصوفية بامتصاص العرق وبتسهيل عملية التبخر، بينما تمتاز الملابس القطنية بأن لها قابلية أكبر من الملابس الصوفية في الاحتفاظ بالعرق.

رئات صغيرة للجسم

يقوم الجسم عن طريق العرق بطرد العديد من المواد الضارة -مثل المادة البولية "يوريا" وحامض اليوريا والملح- التي تتكون داخل الجسم نتيجة العمليات الحيوية التي تجري فيها. لذا يمكن القول بأن الغدد العرقية قد أُنيطت بها وظيفة تنقية الدم مثل الكلية.

وما إن تثار هذه الغدد العرقية إثارة خفيفة، حتى ينساب سائل العرق من القناة ببطء، ويتم امتصاص جزء من الصوديوم وأيونات الكلور الموجودة في هذا السائل من قبل الجسم. وهذا في صالح الجسم، لأن هذه المواد ضرورية له، وإلا اختل التوازن الكهربائي للجسم وظهرت مشاكل عضلية وعصبية فيه، وتتولد الحاجة في الجسم إلى مزيد من الأملاح.

نحن نعرق كثيرًا إن كان الجو حارًّا أو إن قمنا بحركات وبنشاط جسدي كبير، لذا فلا يجد الجسم متسعًا من الوقت لتلافي النقص الحاصل آنذاك في أيونات الصوديوم والبوتاسيوم والكلور. فإن لم يتم التعويض في مثل هذه الحالات من التعرق الزائد عن السائل المفقود، ظهرت مشاكل في انتظام الدورة الدموية في الجسم. لذا يجب المحافظة على الشيوخ وعلى الأطفال في الأيام الحارة من التعرض للشمس، وإعطاؤهم السوائل بكميات كبيرة.

لماذا نعرق عندما نتأثر أو نُثَار؟

عندما نتعرض لأمر مثير أو مهيّج، تنشط منظومة العصب السمبثاوي، ويتم إفراز مادة الأدرينالين من الغدد الموجودة فوق الكلية. وهذه المادة تؤثر بشكل خاص على زيادة إفراز الغدد العرقية الموجودة في الإبط وفي راحة اليد.

وبنشاط المنظومة السمبتاوية هذه، يتغير العزل الكهربائي الموجود في الجلد، ويعتمد جهاز الكشف عن الكذب على وجود هذه الظاهرة. كما أن فقدان التوازن الهرموني في الجسم وإرهاق الغدة الدرقية، وتناول الكحول، وأخذ مقادير كبيرة من مادة "الكافائين"، وإدامة تهييج منظومة العصب السمبثاوي، يؤدي إلى زيادة التعرق.

وعدا هذا، فهناك حالات أخرى يزداد فيها التعرق، مثلما نرى ذلك في بعض أنواع مرض السرطان، وعند حدوث أزمة قلبية، وفي مرض الشلل الرعاش، وفي مرض الإفراط في إفراز الغدة الدرقية... يكون التعرق في هذه الحالات، إشارة إلى هذه الأمراض أو نتيجة لها. لذا فقبل البدء بعلاج ظاهرة

التعـرق المفـرط، يجب معرفة السـبب. وأحيانًا يكون التعرق نتيجة بعض العوامل الجينية غير المعروفة حاليًا.

ماذا يحدث لو لم نتعرق؟

يطلـق علـم الطب علـى فقدان الجسـم كله أو بعضـه لقابلية التعـرق اسـم "Anhydrous"، ومـن أسـبابه؛ الإصابـة بسـرطان الجلـد، وضعـف الغدة الدرقيـة، ومرض البواسـير والجذام، ومرض "الصدّاف" (Psoriasis)، وكذلك نتيجة اسـتعمال بعض الأدويـة، وكما تظهر عوارض فـي أي محرك ترتفع فيه درجة الحـرارة، كذلـك فمـن يُولد وهـو لا يملك في جسـده غددًا عرقية، لا يسـتطيع جسـمه القيام بعملية تبريـد، لذا قد يموت من ضربة الشمس أو من ارتفاع الحرارة.

التعرق عملية تكييف للظروف الجوية

عندمـا يذهـب شـخص يتمتـع بالصحـة ويعيش فـي ظروف مناخية اعتيادية إلى بلد آخر ويتعرض هناك إلى حرارة الجو، يسـتطيع فـي بـادئ الأمـر التعرق بمقـدار لتر واحـد فقط في السـاعة، ولا يكفـي هـذا المقدار لطـرح الحـرارة الزائدة عن الجسـم. ثم يزداد مقدار التعرق عنده تدريجيًّا حتى يصل إلى (٢-٣) لترًا في الساعة.

ومقـدار الزيـادة في مقـدار التعـرق، مرتبط بسـعة وقدرة الغـدد العرقيـة علـى الإفـراز. ومـع ذلك فـإن مقـدار الملح الذي يفقده الجسـم، يبدأ بالانخفاض بعد تكيف الجسـم مع الظروف المناخية الجديدة. ويعود هذا إلى زيادة إفراز هرمون "الدسـترون" الذي يعمل على تأمين تكيف الجسـم مع البيئة الجديدة.

وبينما يفقد الشـخص -الذي لم يتكيف جسـمه مع البيئة الجديـدة والظـروف المناخيـة الجديـدة- (١٥-٣٠) جم من الملح في الجو الحار، نرى أن هذا المقدار ينخفض إلى (٣-٥) جم كل يوم بعد انقضاء (٤-٦) أسابيع عليه، بعد تكيفه مع الظروف الجديدة.

وقلة ضياع الملح هنا -على الرغم من زيادة التعرق- تُعد هبـة من هبـات الخالق. فلو اسـتمر ضياع الملـح مع التعرق الكثيـر، لحدث انخفاض في ضغط الدم، وضياع في سـوائل الجسـم، مما يؤدي إلى حدوث صدمة وإلى الموت. لذا كان على الإنسـان أن يحافظ على نفسـه حتى يتعود جسـمه على المناخ الحار.

رائحة العرق

العـرق فـي الحالـة الطبيعيـة والاعتياديـة سـائل دون رائحة، ولكنه يكتسـب رائحة بفعل إفراز الغدد الدهنية، وبفعل نشاط البكتريـات الموجـودة فـوق الجلـد وقيامها بتكويـن تراكيب متعـددة. والإنسـان يشـكو عـادة مـن رائحـة العـرق، وتقوم بعض مركبات التجميل المسـتعملة بسـد منافذ الغدد العرقية الموجـودة تحـت الإبط، وهذا يؤدي إلى بقـاء المواد الضارة -التي يجب طردها خارج الجسـم- في داخل الجسـم، وهذا أمر ضار للجسم.

مـن أجـل منع التعرق المفـرط الذي يؤثر سـلبيًّا في حياة الناس، يجب أخذ بعض الأمور بنظر الاعتبار:

مثلاً، على الأشخاص الذين يتعرقون كثيرًا، أن يقللوا من شـرب الشـاي والقهوة وغيرها من السـوائل التـي تنبّه وتزيد التعرق، وأن يبتعدوا أيضًا عن الفلفل والتوابل والأطعمة التي تحتـوي عليهما بكثرة. كمـا أن الملابس تلعب دورًا مهمًّا في التعرق. كما أن التعرق الذي يحدث في جميع أجزاء الجسـم والرائحة المنبعثة بسـببه، ولا سـيما في أخمص القدمين وفي راحة اليد وتحت الإبط، تعود إلى تناول بعض أنواع الأغذية؛ كالثوم والبصل والباسطرمة والنقانق.

وعلى الذيـن يتعرقون كثيرًا، اسـتعمال الملابس الصوفية والقطنيـة أو ملابـس الكتان، وأن يتجنبوا اسـتعمال الملابس الداخليـة التـي تزيـد مـن التعـرق، وأن يتجنبـوا أيضًـا لبـس الجـوارب أو الأحذيـة المصنوعـة مـن المـواد الاصطناعية، والقيـام بغسـل الأجزاء التي تتعرق كثيرًا في أجسـامهم، وألا يلبسوا الأحذية الرطبة من العرق إلا بعد أن تجف.

أفضـل طريقة للتخلص من رائحة العرق هي الاسـتحمام فـي فتـرات متقاربة، وإذا لم يسـتحم الشـخص مـدة طويلة، فإن جسـمه سـيمتص مرة أخرى المواد الضارة التي تكون قد خرجت مع عرقه في السابق. وبما أن عملية التعرق هي عملية دفاعية، فإن منع التعرق -ولا سيما في أشهر الصيف- يشكل دعوة للتعرض للضربة الشمسية. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي (رحمه الله).



أ.د. الصفصافي أحمد القطوري*

المنمنمات العثمانية

تراث إسلامي مشترك



لقد أعقب فتح القسطنطينية وتحويلها إلى عاصمة الدولة، طفرة في تطور كل الفنون الجميلة ومن بينها فن المنمنمات. فقد بسط الفاتح جناحي رعايته لكل فروع الفكر والأدب والفن، واستدعى إلى قصره كبار العلماء والشعراء والفنانين ليس من الشرق فقط، بل ومن إيطاليا أيضًا، بل وصل الأمر بالسلطان محمد الفاتح أن افتتح في قصره الجديد "نَقِشْخانَه" (أي بيتًا للرسم)، واستدعى له "بابانقاش" الأوزبكي الأصل. وفي هذه الورشة أي المرسَم، أمر السلطان بنسخ المخطوطات النادرة لحساب مكتبته. وكان يجزل العطاء للمذهبين الذين يقومون بتذهيب هذه المخطوطات بنفس درجة السخاء التي كان يتعامل بها مع النسّاخ والمجلدين والخطاطين والمترجمين... وقد أبدع هؤلاء النُقّاش في رسوماتهم المنياتورية المنمنمة في هذه المخطوطات التي بدأت تظهر وترى النور، وتتناولها أيدي الباحثين والمهتمين.

لن نجافي الحقيقة لو قلنا إن السلطان محمد الفاتح قد افتتح عمليًا في قصره الجديد ما يمكن أن نطلق عليه بلغة اليوم "أكاديمية للفنون والعلوم والترجمة". فقوائم الكتب التي بدأت تظهر، تُقدم لكل مهتم الجديدَ كل يوم في هذا المضمار.

تسجل كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح قد عيَّن رسامًا يدعى "سنان بك" كرئيس للنقَّاشين في قصره, كما يقال إن سنان بك هذا، قد درس فن الرسم في البندقية، وما زالت خزائن متحف قصر طوب قابي بإسطنبول، يحتوي على بورتريه للسلطان محمد الفاتح من أعمال هذا الفنان. بالإضافة إلى ذلك فقد دعى السلطان محمد الفاتح، الرسام الإيطالي "بلّليني" (Bellini) إلى إسطنبول للعيش في كنفه سنة (١٤٨٠م)، حيث رسم له صورًا وصمم له ميدالياته ونياشينه التي كان يقدمها لكبار الزوار والمبدعين في كل ميادين العلوم والفنون.

ومن بين محتويات دائرة الخزينة في قصر طوب قابي، هناك ألبوم للصور المنياتورية يسمى

"ألبوم الفاتح"، وتحمل بعض هذه الرسوم توقيعًا بالقلم الأسود لـ"يعقوب بك الآق قُويُنْلُو"، فضلاً عن وجود رسوم للآخرين.

إن التطور الذي بدأ مع السلطان محمد الفاتح في المنياتور في العصر العثماني، قد وصل إلى نضجه الكامل في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م).

ومن الثابت أن معظم بلدان العالم الإسلامي -في غالبيتها العظمى- قد خضعت للنفوذ العثماني في عصري السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) والسلطان سليمان القانوني، وامتدت حدود الدولة في العالم الإسلامي إلى تلمسان غربًا وإلى تبريز وإيران وتفليس شرقًا. وقد شهد العالم الإسلامي امتزاجًا وانصهارًا بين أقوامه وأجناسه في هذه الفترة، بحيث يصعب أن نجد له مثيلاً في أي عصر آخر.

وكما أن عهد "القانوني" كان بمثابة العصر الذهبي في كل نواحي الحياة في البلاد العثمانية، فإن فن المنمنمات هو الآخر قد تطور وازدهر في هذا العصر ازدهارًا ملموسًا، ونشأ في كنفه العديد من المبدعين؛ أمثال "قينجي محمود" و"إبراهيم شلبي" و"نيكاري" و"حيدر رئيس" و"النقاش عثمان" و"محمد بك" و"كفلي محمد شلبي"... وهؤلاء جميعًا كانوا من الأساتذة والرواد الكبار في الفن.

أسماء لامعة وأعمال خالدة

ومن أكبر الأسماء التي لمعت في هذا الفن خلال القرن السابع عشر؛ النقّاش أحمد مصطفى، أما الذي لوّن القرن الثامن عشر بزخارفه رسوماته فهو "لوني" (عبد الجليل شلبي الأدِرْنَوي). وقد عُيّن "لوني" رئيسًا لفناني السراي العثماني في عصر أحمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠م)، وأعماله تستحق الإعجاب والتقدير، حيث قام برسم (١٣٧) لوحة منمنمات زيَّن بها "ديوان" الشاعر "وهبي" الذي نظمه بمناسبة حفلة الختان للأمير سليمان نجل السلطان أحمد الثالث. ولقد خط "لوني" لنفسه مدرسة خاصة به في فن المنياتور العثماني، وظل هو أستاذها الأمثل.

إن أهم الموضوعات التي تطرق إليها فن المنمنمات العثماني؛ "الشبيه" (البورتريهات) أيْ الصور الشخصية، والموضوعات التاريخية، وحياة السراي، والحروب التي خاضتها الدولة، وحصار السلاطين لمواقع الأعداء وقلاعهم... وأهم الخصائص التي تميز بها فن الرسم المنياتوري في العصر العثماني، إتقانه لرسم الموضوعات التي توضح المعارك التاريخية، وتزيين الكتب التي تقدم إلى السلاطين. كما أن "السورنامه"؛ أي كتب الاحتفالات والمهرجانات والمواكب واستعراض الجيش والأسطول، والـ"هُنَرْنامه"؛ أي كتب الحرف والمهن ومهارات الحرفيين، كانت من أهم الميادين التي أبدع فيها الفنانون العثمانيون حتى القرن السابع عشر الميلادي. ويُعتبر "لوني" الذي نشأ وتربى في القرن الثامن عشر، هو أول مَن غيّر النمط التقليدي الكلاسيكي للمنمنمات العثمانية.

وإذا كان فن رسم المنمنمات العثمانية قد خط لنفسه أسلوبًا خاصًّا به في الرسم والتلوين والتكوينات الفنية، إلا أنه أعطى أهمية عظمى للأسلوب؛ فلم يلتفت للأبعاد الثلاثة كما كان متبعًا، بل جعل الشخوص تصطف فوق بعضها البعض، ويدلل الفنان بالحجم على عظمة الشخصية المقصودة.

إن تصغير رسم الشخوص في خلفية الصورة لم يقلل بأي شكل من الأشكال من جمال اللون ودقة الخطوط. وبدلاً من فوران الرومانسية وسيطرتها على موضوع الصورة والطبيعة التي تحيط بالموضوع، فقد سادت الخطوط البسيطة والمريحة والمرحة في نفس الوقت. ولقد أشاع اللون البرّاق نوعًا من الرونق والبهجة على اللوحة، وحلَّت الألوان الأحمر والأزرق والأخضر والمور والأصفر والبرتقالي والبَمْبَه والبني في منمنمات العصر العثماني محل اللون الأحمر الكراميدي لرسومات الجدران في أواسط آسيا.

مرآة العصر العثماني

إن المنمنمات هي في العادة ترجمة حيّة ومتحركة للتاريخ والشعر والحكايات، قد تكون أشبه بفن السينما في عصرنا



الحالي. فمجرد إمعان النظر في إحدى المنمنمات، يجعلنا نستحضر أمام أعيننا حياةَ المجتمع الذي عاش فيه الفنان الذي أبدعها، وفلسفاته الحياتية ونظام أخلاقياته وأعراف وعادات ذلك العصر. كما تجسد لنا ملبوساته وأفراحه ومباهجه، وتضع أحداثه التاريخية حيّة ومتحركة أمام أعيننا. فقد بيَّن الفنان في "بيان منازل سفر عراقين" المواقع المتعددة التي توقفت بها قوات السلطان سليمان القانوني عند توجهه لفتح العراق وفارس في عامي (١٥٣٤-١٥٣٥م). والصور تبيّن هذه المراحل على امتداد المسافة بين إسطنبول وتبريز ثم العودة عن طريق العراق، وجاء ذلك في ١٢٨ منمنمة. كما نجد في هذا العمل صورًا لعدد من المدن الكبيرة بالأوصاف التي كانت عليها تلك المدن، وجاء ذلك كله بمهارة فائقة. كذلك صورت الأماكن التي توقفت بها الحملة أو مرت عليها، وتم هذا خلال خطوط بسيطة وبحيوية ظاهرة تجلى في أسوار المدن والقلاع. هذا إلى جانب رسم الجبال والأشجار والحيوانات؛ ومنها الأرانب والغزلان والأيائل وأنواع البط، وكلها بألوان زاهية تنم عن حب غامر للطبيعة.

ويضم كتاب تاريخ السلطان "بايزيد" عشرة منمنمات تحكي قصة الصراع بين "بايزيد الثاني" و"جَمْ سلطان". إنها تحوي عددًا من الموانئ إلى جانب الحصون والقلاع بطريقة دقيقة ومنظمة، بينما تحوي "سليمان نامه" على ٣٢ منمنمة تصور هي الأخرى مدنًا وقلاعًا وموانيًا تتصل كلها بحملات السلطان سليمان القانوني على بلاد المجر عام (١٥٤٣م)، وكذا غارات "خير الدين بربروس باشا" في البحر المتوسط.

ولم يمنع هذا من تصوير الكثير من أنواع الأشجار والأزهار والجبال والتلال وشتى أنواع التضاريس الطبوغرافية. وهناك شبه، بل يمكن القول إنها متطابقة مع ما ورد في منازل سفر عراقين. وهناك عمل عظيم الأهمية، ثنائي أو مثنوي المقاطع، مكتوب بالفارسية على يد الخطاط الأذربيجاني "علي بن أمير بك الشرواني"، وتضم المخطوطة ٦٩ منمنمة، وتصور أحداثًا مختلفة في عصر سليمان القانوني؛ حيث تبدو فيها أبهة حفلات الاستقبال ببلاطه، وخروجه للصيد، ومعاركه وانتصاراته... وجاءت المنمنمات كلها رائعة، سواء تلك التي رسمها الفنانون المحليّون بأساليبهم المختلفة، أو تلك التي رسمها الفنانون الأجانب. وامتزجت في هذا العمل المؤثرات الشرقية بالمؤثرات الغربية، وظهر أسلوب وطراز يفيض بالحيوية وينطق بالواقعية. وتعطينا المناظر المتنوعة التي جمعت بين ترك وفرس وعرب ومجر... الكثيرَ من الملاحظات والمعلومات عن أنواع الملابس والأسلحة؛ فأشكال الدروع ومختلف الأسلحة والأعلام والملابس... كلها قد رسمت بدقة فائقة وواقعية تُظهر هيئة الفرسان الثقيلة التسليح، وما هناك من فوارق بينها وبين رجال الخيَّالة وحركتهم الخفيفة السريعة.

أما كتاب "هُنَرْنامه"؛ أي المهارات والحرف -وهو من رسومات الفنان "لقمان"- فيغطي الجزء الأول منه، حياة ومعارك السلاطين من عثمان غازي إلى سليم الأول، وبه ٤٥ منمنمة، كما خُصصت منمنمات الجزء الثاني كلها للسلطان سليمان القانوني، وعددها ٩٥ منمنمة. ومن الأعمال الأخرى الهامة والتي سبق الإشارة إليها "السُورْنامه"،



تضم ٤٣٧ منمنمة، وتصور احتفالات السلطان مراد الثالث بختان ولده شاه زاده.

وتمتاز صور هذه المرحلة بتوزيعات واضحة؛ حيث تنقسم الصورة إلى ساحات منفصلة، ومجموعات متجانسة، وصور لآدميين موزعة على جوانب اللوحات تاركة المجال للمنظر الطبيعي الخَلَوي، ولكنها تنم عن أن المنظر الخَلَوي وحركات الفرسان والحيوانات قد درست دراسة دقيقة ومتأنية.

ومن صور "السُورْنامه" التي تتناول المهارات والحرف، نتعرف على مجموعاتٍ تناولها الفنان في تكوينات مستقلة، وعالج كل واحد من هذه التجمعات بأعلى درجات المهارة، وبالتالي أظهرت هذه الصور دقة وانضباطًا كبيرين لحياة وأعمال صناع وحرفيّي هذا العصر.

ومن منمنمات الصفحات المتقابلة، نجد صورًا للمهرجانات التي كانت تُقيمها نقابات الحرفيين لإظهار مهاراتهم... ومنها نتعرف على الولائم وحفلات المرح والترفيه التي كانت تستمر ما يزيد عن أربعين يومًا في "آت ميداني"؛ أي منطقة مضمار سباق الخيل... وظهرت في خلفية الصور قصر إبراهيم باشا مع مقاصير السلطان وعلية القوم.المهم أننا نتعرف من هذه الصور على طبقات المجتمع وحياة الناس في إسطنبول، وأحوال التجار والصنّاع، وأنواع المهن السائدة... كما تبيّن هذه الصور ملابس العصر، وأدوات الصناعات السائدة. فمشاهدة هذه الصور إلى جانب أنها تبعث في المشاهد المرح والبهجة اللذين تُشيعهما تلك الاحتفالات، فإنها تجعله يستعير صورًا من أحاسيس الناس ومشاعرهم في تلك المرحلة، وتعطيه معلومات وافية عن شتى مناحي العصر الذي يشاهده.

مرحلة النضج الفني

والصور التي ظهرت في عصر زهرة "اللاله" والتي أبدعها المصور "لونى" في "سرنامه وهبي"، أحسن وثيقة لذلك العصر؛ إذ إنها تمثل مميزات التصوير في تلك الفترة أصدق تمثيل، فهي تمتاز من حيث الموضوع بالدقة والحرص على النِّسب والأشكال، وخلفية الصور كانت بسيطة وغير مزدحمة بالتفاصيل، مما أعطى الفنان فرصة إظهار الرسوم الآدمية والتمييز بينها، كما مكّنه من وضعها في موضع مناسب للموضوع ولمركز الشخصية.

كذلك حرص المصور العثماني على إظهار الأبعاد الثلاثة للرسوم الآدمية عن طريق الظل وطريقة معالجة المنسوجات والملابس، مما يدل على أن فنان ذلك العصر كان على علم ودراية واسعة بالفنون والتأثيرات، سواء أكانت شرقية أم غربية، مع محافظته التامة على التقاليد والأصول والأساليب القديمة.

كذلك استمرت الصور الشخصية في التصوير العثماني دون انقطاع ولم تكن قاصرة على السلاطين وعلية القوم، بل امتدت حتى شملت عامة الناس والحرفيين وأرباب الفنون وجنود الإنكشارية، وكذا السفراء الأجانب.

ويمكن اختصار القول بأن عصر "اللاله" في تاريخ الفن المنياتوري العثماني، يعبّر عن مرحلة نضوج تام لشخصية التصوير العثماني جمعت بين الفهم الكامل للتأثيرات والتيارات الغربية المعاصرة مع الإبقاء والحفاظ على الشخصية والهوية العثمانية التراثية الأصيلة.

وتوجد أروع النماذج الفنية التي تعبّر عن فن المنياتور العثماني المشترك في متحف "طوب قابي" بمدينة إسطنبول، ومكتبة جامعة إسطنبول، والمكتبة القومية بها، إلى جانب مكتبة المتحف البريطاني في لندن، والمكتبة القومية في باريس، وكذا المكتبات العامة في برلين وفينا ومعظم دول أوربا وأمريكا... والذي يُقلّب صفحات فهارس المخطوطات وما بها من صور نمنمية، يرى مدى الثراء الإسلامي في هذا الصدد.

ويكفي أن نعرف أن هناك ١٣,٥٣٣ لوحة منياتورية داخل الكتب والمخطوطات والألبومات الموجودة في متحف "طوب قابي" وحده، وأن هذه الكتب والمخطوطات والألبومات تبلغ ٤٥١ مجلدًا تعود إلى الفترة المحصورة فيما بين القرن الثاني عشر والثامن عشر فقط. إذا ما عرفنا ذلك وفهمناه وأدركنا مغزاه، عرفنا أهمية الثروة والكنوز التي يمتلكها العالم الإسلامي، كتراث مشترك يصعب على كل الدسائس أن تنسبه إلى قوم دون آخر من الشعوب الإسلامية بقصد الوقيعة وإبعاد بعضها عن بعض. ■

(*) جامعة عين شمس / مصر.

أ.د. عماد الدين خليل*

إذا وَجدتْ الفكرةُ طريقها إلى الجماهير واقتنعت بها وأحبتها وعشقتها.. سارت وراءها، وخطت نحوها، وجهدت من أجلها، ثم عملت على تحقيقها، ولكن الفكرة التي لا يدعمها العلم والتخطيط كثيرًا ما يكون مآلها إلى الفشل عاجلاً أم آجلاً.

(الموازين)

* * *

الأسلوب الملتوي إلى أين؟

يتساءل المرء -للمرة العشرين- إلى أين ستمضي بكتّابنا وأدبائنا ونقادنا موجةُ الأسلوب الملتوي واللغة الثالثة -إذا صح التعبير- تلك التي لا أرضًا قطعت ولا ظهرًا أبقت.

إنهم لا يملكون "اللغة" القديرة على "التوصيل"... على أن ينقلوا أفكارهم وتجربتهم وخبراتهم ومرئياتهم وإبداعهم للمتلقي، بحجمها تمامًا، بمفرداتها تمامًا، بخلجاتها تمامًا... فيلجأون إلى الإغماض والتعتيم معتقدين أنهم بذلك -وليس بعجزهم عن الأداء السليم- قد قدموا شيئًا ذا قيمة.

وبمرور الوقت يزداد التباعد بين المطالب البيانية للغة الخطاب الفكري أو الأدبي أو النقدي، وبين قدرته على التوصيل... فإذا بالمتلقي "يصدم" بعدم قدرته



على إدراك هذا الذي يقوله هؤلاء المفكرون والأدباء والنقاد، ويجد نفسه أمام حزمة من الأسلاك الشائكة تفصل بينه وبين النص المكتوب! فما يكون منه -ومن جيل القراء عمومًا- إلا أن يكفوا عن قراءة الشفرات والمعميات والألغاز التي لا تكاد تقدم لهم شيئًا "واضحًا"، بل أن يكفوا عن "القراءة" على إطلاقها. وبما أن القراءة هي عصب تكوين المثقفين في العالم، فلنا أن نتصور كيف ستكون حال أمة لا تقرأ.

ما لم نتداع جميعًا لوقفة جريئة لمجابهة الحالة التي تؤذن بفيضان رهيب قد يأتي على مفاهيم التعامل مع لغتنا العربية من القواعد فيحيلها ركامًا، فقد يأتي اليوم الذي ندخل فيه دائرة الاغتراب اللغوي الذي يجعلنا نعيش في جزر متباعدة ومنعزلة... وحينذاك نكون قد خسرنا كل شيء.

لو أدرك هؤلاء؟!

ولو أدرك هؤلاء الكتّاب والأدباء هذه الحقيقة، فلربما أعادوا النظر في الجهد الكبير الذي بذلوه والذي لم يأت بطائل، ما دام أنه بعيد عن القراءة الجادة معه، عصي على قارئيه، ولعادوا لكي يبدأوا رحلتهم مع الكتابة من جديد، وأمامهم هدف أساسي واحد هو مبرر "الكتابة" للآخرين؛ أن يكتبوا ما يصل إلى هؤلاء فيمنحهم الكثير.

إنهم يضعون السدود

ومن عجب أن الأسلوب الملتوي هذا أو اللغة الثالثة، تجاوز للأسف دائرة الأدب والنقد إلى أنماط الفكر البشري في سياقاته كافة، وإذا بنا نقرأ أو نستمع للكثير من المفكرين والباحثين والكتّاب وأولئك الذين يلقون بحوثهم في الندوات والمؤتمرات، فلا نكاد نعثر على ما يريدون أن يوصلوه لنا إلا بشق الأنفس، وقد لا نعثر في أحيان كثيرة على شيء.

إن أولئك وهؤلاء يدفعون القراء دفعًا إلى زاوية القرف والاشمئزاز مما يقرأونه، ويضعون السدود بين المفكر والمبدع وبين المتلقي، بدلاً من إعانته على المقاربة والالتحام.

حتى رسائل الماجستير والدكتوراه

رحم الله "أيام زمان"؛ يوم أن كان النقد عذبًا سائغًا شرابه مهما قيل عن "ذاتيته"... ولو استيقظ "العقاد" أو "طه حسين" أو "سيد قطب"، فماذا سيقولون إزاء هذا الركام الذي يتزايد يومًا بعد يوم بصيغة متواليات هندسية، ويسوقه التقليد الأعمى والعجز إلى التكاثر السرطاني الذي لا يدري المرء إلى أين سينتهي به المطاف؟!

إننا أمام منظومة من الطلاسم ضاع مفتاحها على النقاد والباحثين والقراء معًا، وهي في نهاية الأمر لا تعكس عمقًا في الرؤية، بل هو السقم في التعبير عن الأفكار، والعجز في إيصالها للآخرين، بلغة قوية رصينة قديرة على نقل أدق الخلجات وأعمق الأفكار.

ونقرأ حتى رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه التي تناقش في باحات كليات الآداب والتربية وغيرهما في مختلف جامعاتنا العربية... فنجد أنفسنا إزاء هذا "الوباء" الذي انتقل إلى أيدي الطلبة، لا تدري كيف، فأصبحوا يكتبون دون أن يكترثوا بالتعبير السليم القدير على إيصال معطياتهم بالشفافية المطلوبة إلى الآخرين.

تحذير مبكر

ومنذ ستينيات القرن الماضي، كنت قد حذرت من هذه المأساة التي بدأت يوم ذاك تطل برأسها المشؤوم، فكتبت مقالاً عن "أزمة التعبير في العراق" نشر ضمن كتاب "في النقد الإسلامي المعاصر"، الذي صدر بطبعته الخامسة الجديدة عن دار ابن كثير في دمشق وبيروت عام (٢٠٠٧م)، قلت في آخره: "البيان كان هدف الأولين ويجب أن يكون هدف الآخرين... أن توضح تجربتك الشعورية، أن تبعث للنور أحداث عالمك الداخلي، أن تقوم بتنسيق دقائق انعطافاتك الوجدانية واهتزازاتك النفسية، ولمحاتك الفكرية لا يقتضي أبدًا أن تغمض وأن تلح في الغموض، أو أن تلقي ظلالاً سوداء قاتمة على معطياتك لكي يقال إنك غامض وإنك عميق... معظم الأدباء الكبار في الماضي البعيد والقريب، ومن هو معاصر منهم، لم يصلوا القمة بالغموض... على العكس من ذلك، كان البيان ركيزة أعمالهم الكبرى، البيان العميق في الوقت نفسه. وكثير من الشباب الذين لا تشكل أحداثهم الداخلية وحوارهم الوجداني سوى رصيد ضئيل، تمكنوا بالخروج على قواعد اللغة والبيان وبالرصف الغريب للعبارات، من أن يرتفعوا -أو هكذا يخيل إليهم على الأقل-

إلى مستوى الأدباء الحقيقيين... وكثير من الشباب الذين لم يستكملوا بعدُ الأدوات الأساسية للعمل الأدبي والفني، برزوا فجأة في أجواء العراق الثقافية ليفرضوا أنفسهم فرضًا في مجالات الأدب فيه".

أهم الملابسات والنتائج

وأشرت في المقال المذكور إلى أهم الملابسات والنتائج التي رافقت وقادت إلى هذه المأساة:

١- إن التعقيد اللغوي والذهني يُفقد العمل الأدبي مؤثراته الوجدانية.

٢- يضع العوائق والقيود في طريق الأعمال الأدبية والفنية، لأنه يصرف الكثيرين عن الرغبة في قراءة وتتبع تلك الأعمال حتى النهاية.

٣- يؤدي إلى اضطرابٍ في "التكنيك" الفني للعمل الأدبي.

٤- يضيع وحدة المعنى وهدفية العطاء.

٥- يؤدي إلى تشابه آلي في الأساليب وعدم تميزها وتفردها.

وينتج هذا التعقيد والاضطراب عن:

أ- فوضى في الأداء اللغوي والتعبيري.

ب- عدم التمرس على البيان.

جـ- التأثر السلبي بترجمات الأعمال الغربية، وبخاصة تلك التي نقلت إلى العربية على أيدي مترجمين لم يتمكنوا بعدُ من فن الترجمة.

د- الرغبة في ملاحقة الاتجاهات الجديدة في الغرب وبخاصة "اللامعقول" دون تفهمها.

هـ- حشر الرموز الأسطورية والتاريخية، وخلق مصطلحات فنية مستعجلة لم يصطلح عليها اللغويون.

و- إثارة الاختلال والصخب في الموسيقى الداخلية والخارجية للشعر.

بعدها، بما يزيد عن الأربعين عامًا، عدت لمعالجة الظاهرة نفسها في مقال يحمل عنوان "أبجديات حول أدب الغموض" نشر في مجلة "حراء"، وكأن لم يتغير من الأمر شيء.

دور الترجمة

وبالتأكيد، فإن صيغ الترجمة إلى العربية من اللغات الأخرى على أيدي مترجمين غير أكفاء، لها دورٌ كبير في هذه الظاهرة. فكلما ازدادت حركة الترجمة وأصبحت الكتب والمقالات والبحوث المنقولة إلى العربية بأسلوب حرفي متيبس أو انحراف -بدرجة أو أخرى- عن نبض الكتاب أو البحث المترجم تملأ المكتبات والأسواق، ازداد تأثير أسلوبها الملتوي هذا على عقول ووجدان القراء والباحثين، فراحوا يطلعون علينا بما لا يكاد يصل إلينا بسبب من عتمته والتواءاته.

أكثر من هذا، فإن الكثيرين من طلبتنا في مجال الدراسات الأدبية والنقدية، أخذوا يمارسون ما يمكن تسميته بنقل القوالب الغربية الجاهزة وتنزيلها على الأعمال الإبداعية روائية أو مسرحية أو شعرية أو قصصية، دونما أي قدر من الإضافة أو المقارنة أو التمحيص أو الرفض... فيما يذكرني برسالة ماجستير طلب مني يومًا أن أشارك في مناقشتها، وقبل أن أعطي رأيي في الموافقة أو الرفض، رحت أقلب صفحاتها التي تتناول دراسة عن الروائي المصري المعروف "عبد الحميد جودة السحار"، وكنت قد قرأت له الكثير، فإذا بي لا أكاد أعثر على أثر لهذا الروائي، وإنما وجدتني أمام تنزيل آلي رتيب للقوالب النقدية "الغربية" على معطيات هذا الرجل كادت أن تمسخه، فاعتذرت عن مناقشة رسالة يغيب فيها الباحث ويتحول إلى مجرد إنسان آلي يستنسخ ما يقوله الآخر.

وقفة جريئة وإلا فهو الضياع

إننا اليوم، حيث يزداد سرطان الغموض التعبيري وتأثيرات الأعمال المترجمة والنسخ الآلي انتشارًا، علينا التحقق بوقفة جريئة لمجابهة الحالة التي تؤذن بفيضان رهيب قد يأتي على مفاهيم التعامل مع لغتنا العربية من القواعد فيحيلها ركامًا... وما لم نتداع جميعًا لوقفة كهذه، فقد يأتي اليوم الذي ندخل فيه جميعًا دائرة الاغتراب اللغوي الذي يجعلنا نعيش في جزر متباعدة ومنعزلة، والذي إذا ما قدر له أن ينضاف إلى حلقة اغترابنا الحضاري، فإنه سيؤكد هذه الحلقة ويزيدها تجذرًا في ديارنا... وحينذاك نكون قد خسرنا كل شيء. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

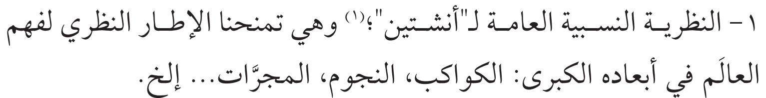
د. محمد باباعمي*

حديث عن حد العلم
والعلاقة بين الفكر والفعل

ت

تقوم الفيزياء الحديثة على ركيزتين أساسيتين هما:

١- النظرية النسبية العامة لـ"أنشتين"؛[١] وهي تمنحنا الإطار النظري لفهم العالَم في أبعاده الكبرى: الكواكب، النجوم، المجرَّات... إلخ.



٢- ميكانيكا الكمّ؛[٢] وهي تمنحنا الإطار النظري لفهم العالَم في أصغر أبعاده: الجزيئات، الكواركات... إلخ.

كان الاعتقاد أن كلا النظريتين صحيحتان، وهذا ما منح الفيزياء راحة لمدة قصيرة، ثم ما

لبث العلم أن وصل إلى مشكلة معقَّدة غير مريحة؛ وهي أن إحدى النظريتين تنفي الأخرى، فهُما متعارضتان، بحيث لابد أن تكون إحداهما فقط على صواب، والأخرى بالضرورة تكون على خطأ. لكن لماذا حدث هذا التناقض الحاد؟

ذلك أنه في معظم الحالات يقوم الفيزيائيون، إما بدراسة الأشياء الكبيرة فقط، أو بدراسة الأشياء الصغيرة فقط، ولا يجمعون بينهما في آن واحد، بحكم التخصص الدقيق، وضعف الوسائل، والاهتمام البشري المحدود... إلخ.

كل علم لا يفسَّر إلى فعل حضاري يسهم في رقي الأمة وازدهارها، هو مجرد ضياع للطاقة، وكل واقع ديني أو اجتماعي أو سياسي أو تربوي أو اقتصادي... أو غير ذلك ليس له جذور ذاتية أساسية في علم ذاتي أصيل، هو مجرد تشويه لروح الأمة ومسخ لكينونتها.

ولقد حاول العديد من العلماء أن يؤلفوا -إجابة على هذا السؤال الهام- في الفعالية، وفي مشكلات اللفظية، وفي العجز عن الفعل، وفي النزعة الخطابية... وما إلى ذلك من المحاولات المشكورة والتي نبّهت إلى بعض الأسباب القريبة والبعيدة، الظاهرة والخفية.

ونموذج الرشد، يضع هذه المعضلة في اللب وفي رأس قائمة الاهتمامات؛ ولذا كانت الخاصية الأولى لهذا النموذج هي "حركية الفكر والفعل"، أو ما يطلق عليه "كيث ديفلين" عبارة "تحويل المعلومة إلى معرفة، والمعرفة إلى سلوك".

الآن لنستبدل المجال والنظريتين، ولنتحول إلى الفكر والحضارة الإسلامية، لنجد أن مجمل تراثنا الحضاري موزَّع على جانبين:

إما الجانب العلمي النظري؛ وهو غالبًا ما يكون من اختصاص العلماء والطلبة ومن يدور في فلكهم.

وإما الجانب العملي التطبيقي؛ وهو ميدان السياسيين والتجار والعسكريين ومن يحوم في حقلهم.

والتعارض بين الجانبين حتى وإن لم يكن مطلقًا في تراثنا الإسلامي المعاصر منه بالخصوص، إلا أنه في كثير من الأحيان كان مهيمنًا، فهو معيارُ التخلف والضعف في أغلب الأحيان، وهذا حال أمتنا الإسلامية اليوم، إلا ما شذ. ذلك أن ثمة هوَّة وشقَّة بين العلم والعمل، بين الفكر والحركة. وهذا غير ما كانت عليه في العهد النبوي الزاهر، وفي العهود المشابهة له المستقاة منه.

السؤال المترتب والبدهي هو: لماذا هذا التعارض؟

الجواب بناءً على ما مضى في التوطئة، هو أن العلم وأهله -عادة- لا علاقة لهم بالواقع، وأن الواقع وأهله -عادة- لا علاقة لهم بالعلم، من هنا ولد الانفصام.

ولكن إلى هنا، يبقى الجواب مجرد وصفٍ والوصف لا يدفع إلى العمل، فهو إجراءٌ مختزَل عاجز؛ ومِن ثم لزم تحديد سبب أو أسباب هذا الانفصام المحير فكريًّا وواقعيًّا.

فنموذج الرشد إذن، يتخطى عقبة "إما وإما"، أي "إما الفكر وإما الفعل"، "إما العلم وإما الواقع"، ويؤسس لعلاقة تقوم على أساس "كذا وكذا"، أي "العلم لأجل العمل"، و"العمل أساسه العلم"، و"كل علم لا يفسَّر إلى فعل حضاري يسهم في رقي الأمة وازدهارها، هو مجرد ضياع للطاقة"، و"كل واقع ديني أو اجتماعي أو سياسي أو تربوي أو اقتصادي... أو غير ذلك ليس له جذور ذاتية أساسية في علم ذاتي أصيل، هو مجرد تشويه لروح الأمة ومسخ لكينونتها".

ولملاحظٍ أن يلاحظ أن العلم له حدود، وأن النموذج قد يكون قاصرًا عن الوفاء لهذه الثنائية تمامًا مثلما كانت الفيزياء بشقّيها عاجزة عن الوفاء للصورة الكلية للكون، فالجواب بالطبع أننا لا ندّعي الشمولية في الكم، وأن التركيز هو على الكيف ولو في أبسط وأصغر فكرة أو أبسط وأصغر فعل، المهم فيهما أن يتَّسما بالحركية وبالتبادل، أي أن يكون بينهما جسر واصل وخيط موصل.

ولنمثل بفعل يومي يمارسه الكثير من الناس؛ وهو شراء جريدة في الصباح، والاطلاع على أهم العناوين، ومطالعة أبرز الفقرات، والتركيز على أكثر المواضيع إثارة... فكثيرًا ما سأل الشباب: هل هذا فعل حضاري يدل على أن صاحبه يقرأ ويطالع ويهتم بأمر البلد، أم هو فعل اعتيادي لا يتميز بسمة

الحضارة والفعل الإيجابي؟

هنا يكون الجواب بناء على نموذج الرشد وبناء على جدلية الفكر والفعل، أن من يشتري الجريدة بغرض الربط بين ما فيها من معلومات بما يصنع موقفه هو وبما يحركه وجهة الفعالية والفعل، يعتبر راشدًا في تفاعله مع الجريدة... أما من يشتريها ليملأ عقله بالأخبار والمعلومات في كل المجالات بلا حدود، ثم بعد ذلك يتخذها مادة لحديثه، ويكررها على أصدقائه ومعاشريه، ثم ينتهي اليوم ويأتي يوم جديد، ويشتري جريدة جديدة، وهي تحمل أخبارًا جديدة، فيدور صاحبنا عليها مثلما يدور "حمار الطاحونة" على الرحا... وهكذا بلا ملل ولا نهاية ولا جدوى... هذا بالطبع مخالف للرشد، وهو تصرف مدعاة للوهن، بل وسبب في العجز غالبًا.

ولو أن كل قارئ لأي جريدة، حاول أن يتحرك إيجابًا في نقطة واحدة، على صغرها، في يومه، ثم يتحرك في الغد نحو فعل إيجابي ثانٍ، وثالث... لجمعنا نهاية كل يوم الملايينَ من القطرات التي تسقي بساتين البلاد وابلاً لا طلاً، وتحوّل اليابسة جنّات، وتعد الوطن والأمة بغد مشرق منير.

وليس لنا أن نتوقف في الوصف ونقول: "إن الجرائد أساسًا لا تعرض الأخبار بهذه الرؤية الكونية الشمولية، وإنما تعرضها بغرض التنفيس وبقصد الإثارة والتهريج"، ليس لنا أن نتوقف هنا، لأن الفعل الإيجابي المترتب عن هذا الاستدراك، هو أن نتحرك نحو إنشاء جريدة تخالف هذا المسار، وتصنع إعلامًا مختلفًا بغاية مختلفة ومنهج مختلف هو في الأخير منهج الرشد والرشاد، وهو سبيل الرجل المؤمن من آل فرعون، الذي لم يستسلم للواقع ولم يبك مثل الثكالى حال الناس، بل راح يصدح بالقول ويضع المخططات ويدعو الناس إلى السير وفقها... ولذا مدحه رب الجلال بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٣٨).

ولقد ضرب "البراديم كولن" أروع مثال بتأسيسه للعديد من المجلات ثم الجرائد ثم القنوات التلفزيونية فوكالات الأنباء... بناء على رؤية واضحة، ومشروع ناضج متكامل قد لا نجد له في العالم العربي اليوم الأثرَ الواسع لأسباب معقّدة ومتداخلة، غير أن أثره العميق يسري في جسم الأمة القطبِ سريان الماء الرقراق في جذور "شجرة التوت" الشامخة ذات الفروع الممتدة، والثمار الحلوة، والعراقة الأكيدة، والنفع الدائم.

ولنهمس في أذن كل مسلم ونقول: لنبدأ بالفعل أو بالفكر... المهم أن نبدأ ونسدد ونقارب ونبادل الأدوار في "حركة حلزونية" لا متناهية... فمن بدأ لم يتوقف، ومن تهيب لم يبدأ، والله هو الهادي لسواء الصراط وهو المجازي على حسن الفعال. ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش:

(١) تشتمل النظرية النسبية على عدة أفكار أهمها باختصار بحسب ذاكرتي:

- مفهوم الزمان والمكان وقد اشتق منه لفظ "الزمكان"؛ ومنه نتج مصطلح "انحناء الزمكان"، وهو عند وجود الكتلة أو الطاقة يصبح الزمكان مشوهًا بانحناءٍ بدلاً من أن يكون مستقيمًا. وقد أثبت أن الضوء لا يسير بخطوط مستقيمة، بل ينحني بمقدار معين.
- فسَرت النسبية العامة الجاذبية على أنها نتاج انحناء الزمكان بسبب الكتلة أو الطاقة، لأنها تقوم بصنع انحناءٍ للزمكان، يتولد مجال جاذبية حولها، وقد خالف بذلك مقولات "نيوتن" بأن الكتلة هي ما يسبب الجاذبية.
- عندما يحدث اضطراب في الشحنة، ينتج عنه موجات كهرومغناطيسية سميت بـ"أمواج الجاذبية".
- لا يوجد فرق بين المادة والطاقة، فالكتلة تتحول لطاقة إذا سارت بسرعة الضوء وذلك بحسب القانون $E=mc^2$، أي إن الطاقة تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء، ولأن المادة مكونة من ذرات، والضوء مكون من ذرات فلا يوجد فرق بينهما.
- الكون مكون من أربعة أبعاد "الطول، العرض، الارتفاع، والزمن"، أما الآن وبعد ظهور نظرية الأوتار الفائقة، فالكون مكون من أحد عشر بعدًا.
- كلما زادت سرعة الجسم يحدث تباطؤ في زمنه، حتى إنه إذا وصل لسرعة الضوء يصبح الزمن قليلاً جدًّا "وهذا مستحيل". أما إذا تجاوز سرعة الضوء فإن الزمن سيتوقف "وهذا مستحيل أيضًا".

(٢) ميكانيكا الكمّ، فزياء الكمّ، أو النظرية الكمومية (Quantum Theory): نظرية فيزيائية أساسية جاءت كتعميم وتصحيح لنظريات "نيوتن" الكلاسيكية في الميكانيكا، وخاصة على المستوى الذري ودون الذري. تسميتها بـ"ميكانيكا الكمّ" يعود إلى أهمية الكمّ (Quantum Plural: Quanta) في بنائها (وهو مصطلح فيزيائي يستخدم لوصف أصغر كمية يمكن تقسيم الأشياء إليها، ويستخدم في الإشارة إلى كميات الطاقة المحددة التي تنبعث بشكل متقطع وليس بشكل مستمر).

أديب إبراهيم الدباغ*



الحزن العظيم



سُئل عليه الصلاة والسلام عن سُنَّته فقال: "الحزن رفيقي، والشوق مركبي، وَقُرَّةُ عيني في الصلاة".

من عمق أعماق الوجود يرتفع شجَن لا يدركه إلا روح نبي... ومن قلب الحياة يسري شَجْو لا تسمعه إلا أذن نبي... ومن الغبطة نفسها ينساب حزن خفي لا يحس به إلا فؤاد نبي... والكون كله طاقة حنين لا تقوى على احتمالها إلا نفس نبي.

و"القرآن" -نبض الوجود وخَفْق الكون- بالحزن نزل، وعلى قلب حزين نزل: "إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا" (رواه ابن ماجة) كما قال عليه الصلاة والسلام.

فأيُّ إنسان لا يذكر أنه في يوم ما انبعثَ عنه نُواح حزين دون إرادة منه، وأن حنينًا فاجأه -على حين غِرة- حمله على التّأوه والألم من غير أن يعرف له سببًا، وكم بكى الإنسان وهو في عنفوان فرحه، وكم ظُلمة في النفس أضاءها الحنين وطهرها الدمع الهتون؟.. وكم أنّة في الأسحار سمتْ بالإنسان حتى ارتقى أسباب السماء بلا علم ولا عمل؟.. وكم خيال شبّت فيه النيران وألهبت عقلاً باردًا لم يعرف صاحبه شوقًا ولم يذرف دمعًا؟.. فعظمة الإنسان، في تحرره من مصائد الأزمنة والأمكنة، وفي قدرته على احتمال عذب الحنين، وعذاب الشوق الدفين حاديه إلى الخلود حيث يرسو مركبه على أبواب الأبدية، وحيث ترتفع البراقع، وتنزاح الحجب، وتتعرى حقائق الأفكار والأشياء، ويتنفس الإنسان أنفاس الحياة الأبدية دون خوف من فقدانها أبدًا.

إن روحه -عليه الصلاة والسلام- تسبح في ملكوت حزن كوني مبعثه التياع واشتياق يضطرم به قلب الكون في ظمئه

اللاهب إلى أنداء الرحمة الإلهية التي من دونها يتطاير شظايا في الفضاء ويتحول إلى رماد بارد لا حس له ولا شعور... فحزنه ﷺ يتعاظم في أطواء نفسه الشريفة وهو يصغي إلى روح الكون، وهو يترنم شجى ووجدًا: حنانيك يا رب... لا خِل إلا إياك... ولا صاحب سواك... ولا سلوة وعزاء إلاّك!..

حزنك يا رسول الله أراق دمع الوجود، وأهرق أسى الأكوان، وأشعل جذوة حنين في قلوب المؤمنين... يا أسوة حزن كل حزين، ويا دثار الواجدين المشفقين، ويا سلوان الحزانى والمتألمين!..

ولأنه يتيمًا ولد، فألمُ اليتم في روحه دفين، وظلال حزنه تظل بهجة روحه، وتلاطف إشراقة وجهه، وتمازج تبسُّم ثغره... فمع اليتم يمضي في كل مرة... أبوه الذي لم تكتحل عيناه برؤيته... ثم أمه جليسة فؤاده الصغير... ثم جدّه ركنه الركين... ثم عمّه الحامي والنصير... ثم زوجه خديجة، وما أدراك مَن خديجة رضي الله عنها... فكل أولئك الذين بكاهم الواحد تلو الآخر من قبلها، عاد يبكيهم بحرقة أشد وأعظم في شخص خديجة... ثم مكة شقيقة الروح وشِلْو الفؤاد... والكعبة توأم وجوده في عالمي الغيب والشهادة، تلك التي هي "أحبُّ بلاد الله إلى قلبي، ولولا أن قومكِ أخرجوني، ما خرجتُ عنكِ أبدًا وما ابتغيتُ عنكِ بديلاً". (رواه الترمذي)

وإلى "الطائف" يمضي، وروح اليتم ظل يتبعه، والأسى يحث خطاه إلى جانبه... وها هي "الطائف" تتسافه عليه، وتتنكر له، وترده عنها!..

يا ذات اللسان الدنس، ويا صوت الرجس، يا عنيفة يا غضوب... على مَن تتسافهين؟.. وعلى مَن تعنفين؟.. على مَن جاء يخطب وُدّكِ، ويحبوكِ خيره، ويعلمكِ الإيمان ويهديكِ للإسلام؟! "إنْ لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أبالي"... مَن له قوة نفس كما لقوة نفس محمد ﷺ في مواجهة المحن... ومن التهيؤ لاحتمال ما تأتي به الأيام من الكروب والآلام؟.. إنه يصعِّد آهة حرّى... ولكن ذهنه في غاية الصفاء، وروحه في غاية النقاء، وعيناه النديتان فيهما رقّة وإشفاق...

جبريل: إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين.

نبي الرحمة: اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون.

وقِطف من العنب على طبق يأتي به "عدّاس" ويضعه بين يديه عليه الصلاة والسلام... يتناول القِطف: بسم الله... و"عدّاس" يشده: هذا كلام لا يقوله أهل هذا البلد.

- "من أي البلاد أنت"؟

- من نينوى.

- "من قرية أخي العبد الصالح "يونس بن متّى""؟

- وما أدراك بـ"يونس"؟

- "أنا نبي... وهو أخي في النبوة".

وينكبّ "عدّاس" يقبّل يديه ورجليه ويهمُّ أن يغسل بدموعه دماء عقبيه... ويعود "عدّاس" إلى سيّده بغير الوجه الذي جاء به... بينما يعود محمد عليه الصلاة والسلام إلى مكة بالحزن نفسه الذي جاء به.

من منابع الحزن في أرجاء الكون شرب فارتوى... وإلى ترانيم الأسى من قلب الكائنات أصغى وسمع... أمّا حزنه هو فقد هزّ السماء، وأقضّ مضجع الخليقة... إنه حزن العزيمة المتعالية فوق كل الإحباطات، وومض الروح المتسامي على كل أحزان الأرض... إنه حزن الرضى بما تأتي به المقادير، وبما يقدِّره الحبيب على الحبيب... حزن الثورة على ظلمات الدنيا وجهالات الإنسان... الحزن الذي يبلغ من القوة حدًّا يستطيع معه أن يحطم كبرياء أعظم طواغيت الأرض غطرسةً، وأن يقهر أشدّ أنواع القهر والعذاب... إنه حزن مضيء يغمر بالأمل كل مَن يلتقيه وما يلتقيه... إنه حزنُ نبي يريد أن يحرك العالم، ويستنهض جنس الإنسان ضدّ العبوديات والصنميات... إنه حزن مَن يريد أن يهزّ صدر العالم ليعيد لقلبه نبض الإيمان قبل أن يسكت إلى الأبد.

إن سيرة أحزانه عليه الصلاة والسلام إيماء لأصحاب الأرواح التائهة بتقبل الالآم كطريقة وحيدة لا مناص منها لاسترداد أرواحهم المغيبة وشحذ ما تراكم عليها من صدإ حائل بينها وبين الفهم عن الأنبياء وإدراك عظمة الرسالة التي بُعثوا بها.

صرخة يأس انفلتت من "أبي بكر" في لحظة ضعف دون قصد منه، وكأن معين الشجاعة عنده قد نضب، ورصيد الثقة بالنصر قد نفد، كانت صرخة إشفاق على صاحبه طوتها ظلمة الغار، وامتصتها جدرانه المصمتة: "لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لكشفنا"!

أومضتْ عينا الرسول ﷺ ببريق الثقة التي لا يهزها شيء، وجرى صوته في جنبات الغار هادئًا نديًّا مطمئنًّا: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠).

ليس بحزن على نفسه، ولا بخوف على شخصه... إنه قد

عاهد الله من قبلُ أن يبيع نفسه لكي يشتري بها أيّ لحظة حزن أو ألم يمكن أن تعتور نفس صاحبه المفدّى.

ولـم يكد يسـمع جـواب الرسـول ﷺ حتى شـعر وكأنّ مـاءً بـرودًا صُبَّ على نار خوفه وإشـفاقه فأطفأهـا إلى الأبد، وأن شـلّالاً من القوة اقتحم نفسـه وشـرع يسـقي بـرذاذه كل ما داخل نفسـه من أسـباب الضعف والخوف، فما عتمتْ أن أشرقت روحه بشعاع من جلال الرسول ﷺ وشدة بأسه وثباته فـي الملمـات، وقد غاب عـن ذهنه في لحظـة الضعف تلك أن جـلال محمد وقداسـته هي التي تجعـل الكون في خدمته وبين يديه، فأخذ يقترب من الرسول شيئًا فشيئًا ليلامس جِلدُه جِلدَه وكأنه يريد أن يستدفئ من بَرداء الخوف بحرارة الإيمان المنبعثة من صاحبه ﷺ.

الحـزن علـوي المنبـع، إلهـي المنـزع، جمالـي المرتع، بطولـي المنشـأ، يمتزج بأجـزاء النفس، ويجري في مسـارب الـروح، يمسّ أكبادنا بجـذوة من نار الأشـواق، وينير جنباتنا بشـعاع مـن سـجدات المحـراب... إنـه الدمعة والابتسـامة، والخـوف والرجـاء، واليـأس والأمـل، فهـو خليـق بالعُبّـاد والزهاد، والساميين من الرجال، وبقلوب الأنبياء والرسل من ذوي العزمـات والبطولات، وهو الذاكرة التي تسـتقطر دموع الجنس البشري، وتستذكر آلامه ومآسيه... فمِن الحزن ينبعث إنسـان المهمات الصعبة، وتتنامى البطولات، وترتفع العزائم، وتزدهـر الفضيلـة، ويولـد نبـلاء الفكـر، وتثور ثائـرة العقل، وتتعـزز قوى الحواس، ويفتـح الخيال أبوابـه، ويرتفع صرح الإيمـان وتتوازن الحضارات فلا تشـتط، وتسـتقيم المدنيات فلا تنحرف ولا تنزلق...

فالحـزن الروحـي سـرّ يجِـلّ عـن إدراكنـا، إنـه ينبئ عن قلب عذْب المشـاعر، عالي الأحاسـيس، ثـري العطاء، مفعم الفضيلـة، زاخـر الحكمة، ظمّاءٌ للحق، بكّاءٌ على نفسـه، رثّاءٌ للإنسان إذا هوى، وللفكر إذا طغى، وللحق إذا غوى...

وهو سبّارٌ لأغوار النفس، كشّافٌ للطائف الإنسان، صقّالٌ لمرايا القلب، سقّاءٌ لجدب النفوس لتخصب، ولغلظة الأفئدة لتشفَّ، ولوحشية الضمائر لتتهذب...

ذلـك هـو الحـزن الـذي كان رفيقًـا للأنبيـاء والأوليـاء والصالحين، وحسن هو رفيقًا وخدينًا وأنيسًا...

لا شـيءَ أقـدرُ علـى أن يعمـر قلوبنـا حنانًا وطهـارةً مثل الحزن، فلمسـة منه يمكن أن تنتشـل روحًا من هاوية الدنس، وتنقـي قلبًـا غارقًا فـي وحْل الضلالـة... وللحـزن رؤيا قلَّما تخطـئ، ولـه فراسـة قلَّمـا تكـذب، وهـو ألصـق بالصديقين والأوليـاء والصالحيـن ناهيـك عن الأنبياء والمرسـلين. فكم مـسَّ مـن أوتـار قلـب فأشـجتْ، وكم روحًـا اهتـزت له وبه صحتْ من نوم ثقيل، وكم عقلاً أيقظ، وكم فكرًا هدى، وكم ذنبًا مسح، وكم حمل إلى الله تعالى من ضراعة وشفاعة، وكم رفـع إليـه من دموع، وصعّد إليه تعالى من خشـوع وسـجود، وكم كشـف من مسـتور، وخرق نظرُه المنظور وغير المنظور مـن الأيـام والدهور... هكذا هـو حزنه ﷺ، يخـرق الزمن، ويسـيح في التاريخ، ويرى أمته في آلامها وآمالها: "لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيرًا ولضحكتم قليلاً" (رواه البخاري)... إنه يرى شـلّال دم يتفجر من "عمـر وعثمان وعلي والحسـين" رضي الله عنهـم أجمعين، ولا يتوقف أبدًا، ويـرى ولَهَ ابنته "فاطمة" وحزنهـا عليـه إذا ما غـادر الدنيا إلـى الرفيق الأعلـى، ويكاد يـذوب حزنًـا على ولـده "إبراهيم" وهو يجود بنفسـه، فتدمع عيناه، ويرق فؤاده: "إنّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون، فالعين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا" (رواه مسلم)... والحزن نفسـه ينتابه على حفيده من ابنته "زينب" وقد حضره وهو يحتضر، ويتلبسه حزن لا يوصف حين يجد النساء يبكين شهداءهم في "أحد" فيقول: "أما حمزة فلا بواكي له".

فحزن محمد ﷺ ليس كالأحزان، ودمعه ليس كمثله دمع، فدمعة واحدة من عينيه الشريفتين قمينة بأن تُنبت غابة أحزان يستظل بها الحزانى السنين الطوال، وتستعصر مدامع السماء، وتهيـج أحـزان الأرض... غيـر أن "الزمـن" يتدفق بصمت لا يلوي على شيء من الأحزان إلى حيث تقوده أقدار الله تعالى، إنه ليتدفق تتبعه خفقات قلب حزين هو قلب محمد ﷺ خفقة مـن بعـد خفقـة، وزمنًـا من بعـد زمن، فيـرى ويكتـم، ويرى ويحزن، فيالله ما أعظمَ حزنَه! ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

المراجع:

(١) الشفا، للقاضي عياض.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام.

علوم

أ.د. عرفان يلماز*

البطريق
الطائر البحري

ط

طاب بَرْدُك أيها الإنسان!.. وكأني أسمعك تقول: وهل يمكن أن يجلب البردُ طيبًا.. فأين ظلت الأيام الدافئة إذن؟! معك كل الحق، فأنتم بنو البشر لا تحبون البرد؛ لأن المهندس العظيم للكائنات خلَقكم وفقًا للبيئة التي تعيشون على أرضها، وهيأ لكم أعضاءكم فيزيولوجيًّا لتتمكنوا بها من القيام بأعمالكم في المناطق المدارية والاستوائية، في يُسْر وسهولة... وزوَّدكم بالعقل لتجدوا الحلول التي تسهل لكم العيش والحياة.. فصنعتم -مثلا- الملابس السميكة لتقيكم من البرد حتى في المناطق القطبية، وأنشأتم البيوت لتعيشوا فيها، واخترعتم الأسلحة لتصطادوا بها وتقتاتوا... أما نحن معشر طيورِ البطريق، فلسنا سوى حيوانات لا تملك عقولاً كعقولكم ولا تتمتع بقدرة على اختراعات مثلكم... ولكن إياكم أن تظنوا ذلك احتجاجًا منا على أقدارنا أو شكوى، بل هو ما جرى به اللسان واقتضاه المقام، لأنه سبحانه لا يترك أحدًا من خلقه إلا ويرزقه، وبالتالي يجهزه بأدوات تساعده على العيش في هذه الحياة الدنيا.

والحمد لله.. وإنْ لم يجعل لنا عقولاً كعقولكم ولا مشاعر كمشاعركم، إلا أننا نعيش حياتنا في يُسْر ومن غير حرَج، وقد منحنا كل ما نحتاجه وجهّزنا بأحسن صورة. ولو لم يكن كذلك، فمن يقدِر على تحمُّل هذا البرْد الشديد!

فأنتم لا تستطيعون القدوم إلى البلاد التي نعيش فيها، والقلائل الذين وصلوا إلى هذا القطب البارد، إنما وصلوا بوسائل ومعدات كثيرة باهظة ولمدة قصيرة... بينما خُلقنا في هذا القطب الجنوبي ببنية نستطيع أن نتحمل بها بردَه القارس. وإياكم أن تصدقوا من يقول: "إننا نحن معاشر البطريق خُلقْنا صدْفةً ونَمونا نتيجة طَفْراتٍ وراثيةٍ إلى هذه الهيئة التي نستطيع بها تحمّل البرد خلال هروبنا الطويل من

حرّ البلدان الدافئة"... فليس هناك من يتخلى عن عشه الدافئ ويهجره إلى البرد، ولا يمكن لحيوان أن يكتسب بالطفرات الوراثية التصادفية جسمًا رائعًا متكاملاً كأجسامنا. ولقد خلقنا بارئنا فزوَّدنا بما نحتاجه من الخصائص لنتمكن من العيش في برد القطب الجنوبي، ولا يمكن لمجهول كالصدفة، أو الطبيعة، أن تزوّدنا بهذه الخصائص قط.

لقد خلق ربنا كل حيوان بإتقان، وإن هذا الإتقان إنما يكتسب قيمته بتناغمه وانسجامه وتكيفه مع البيئة المحيطة به. وما الضب الذي يعيش في الصحراء إلا أثر من صنعة الله المُتْقَنة، وهذا الإتقان إنما يأتي من الخصائص التي زوده بها لينسجم مع شروط الصحراء القاحلة، في حين لا يستطيع أن يعيش في المناطق الباردة ويتحمّل بردها القارس في القطب الجنوبي. ونحن كذلك، لو رحلنا إلى الصحارى القاحلة لأصابتنا العاقبة ذاتها وكان مصيرنا الهلاك. والأسرار القليلة التي توصلتم إلى فك رموزها من خلال علومكم البيولوجية والبيئية، تستند في حقيقتها إلى علم الله المطلق، وبعلمه سبحانه خَلق كل شيء فأحسن خَلقه. ومن العيب أن يقال إن عُضْوايَ الأماميين القويين اللذين يشبهان المجاديف، ويوفران لي السباحة السريعة في الماء؛ هما جناحا طائر، ولو كانا كذلك لما نفعاني بشيء. لكنهما مجدافان رائعان وعضوان مَصيريان بالنسبة لي، ولا يوجد طائر يجيد السباحة مثلي، رغم أن أجنحتهم رائعة تمكّنهم من الطيران.

بالله عليكم قولوا لي، ما الحاجة إلى تكوير أجنحة طائر يطير لتأخذ شكل مجاديف تساعده على السباحة؟! إذا كنتُ أستطيع الطيران فعلاً، فلماذا أعطل أجنحتي وأتخلى عن الطيران إذن؟ أو لماذا أكور أجنحتي كالمجاديف وأجبر نفسي على العيش في هذه المناطق الباردة؟! ألم يكن يكفيني أن أعيش مع الطيور التي تعيش في البلاد الدافئة؟ غير أن الأمر لا يقف عند حدود أجنحتي المؤهلة للسباحة فقط دون الطيران، فإني مزوّد أيضًا بخصائص كثيرة وأعضاء عديدة أستطيع العيش من خلالها في جبال الجليد التي تغطي القطب الجنوبي.. فقد خلقني ربي مصمِّم هذا الكون، بشكل يتناسب مع هذه المناطق، ولا أستطيع العيش في البلاد الحارة.

فالريش الصلبة المنتصبة والتي تغطي جسمي، فضلاً عن أنها تعمل كدفة السفينة التي تمكنني على الدوران السريع المفاجئ أثناء صيد السمك، تعينني أيضًا على الوقوف على السطوح الجليدية الزلقة. أما جسمي فقد صمم على شكل توربيد مقاوم على الضغوط العالية في أعماق الماء، وهو ما يتحدث عنه مهندسو الطيران والمشتغلون في مجال الرياضيات، ولا أدعي ذلك من تلقاء نفسي. فهل يمكن لي أن أكتسب هذه البنية النموذجية الرائعة التي أغوص بها تحت المحيطات وأسبح بسهولة، وأطوّرها من تلقاء نفسي؟!

جسمي يحتفظ بالحرارة ويختزنها

أجسامكم الجافة في الطقس البارد لن تبرد كثيرًا، غير أنه ما إن يلحق البلل أجسامكم فستتعرضون عندها لبرد حارق شديد، ولذلك فإن قدرة العالم الخبير غلفت الزغبات الغليظة التي تحافظ على حرارة جسمي، بزغبات دهنية وكأنها سقف قرميدي يحميني من البلل.

منقاري القوي هو سلاحي الوحيد الذي أحصل به على غذائي، وأتمكن من خلاله من الإمساك بفرائسي من سمك الجليد وما أصادفه من غذاء. وهو صغير بالنسبة لجسمي ليكون فقدان الحرارة في حده الأدنى، وكذلك قدَماي صغيرتان لنفس السبب، لأن العضو الأجرد كلما اتسع سطحه كلما كان فقدانه للحرارة أكبر.

إن ما تطرحونه من الحرارة وثاني أوكسيد الكربون عند الزفير ترونه على شكل بخار الماء في الهواء المتكاثف في الشتاء ويسبب الغباش في نظاراتكم، وبذلك تفقدون مقدارًا من الماء وكمية من الحرارة. أما فتحات تنفسي فقد صممت بشكل متاهات معقدة لتحفظ الحرارة داخلها دون أن تطرحها مع الزفير، فالهواء الساخن الرطب الذي ترسله رئتاي يلقي ما تحمله من الرطوبة والحرارة في تلك المتاهات، لتعود إلى الدورة الدموية والاستخدام من جديد، ولا يخرج في الزفير إلا الهواء البارد المحمل بغاز ثاني أوكسيد الكربون. وحتى تكون العملية منتجة، لابد أن تكون مجرى الدماء في السطوح الداخلية لفتحات أنفي، معاكسًا لمجرى الهواء، وهذا ما تسمونه أنتم البشر بالنظام الترموديناميكي أي بـ"الدورة العكسية". ولقد خُلق الريش الأسود على ظهري والأبيض على بطني، بشكل يتناسب مع مبادئ الحرارة الفيزيائية والبصرية... فأنَّى لعقل طائر عاجز مثلي أن يدرك هذا الإتقان؟! نعم، فبينما يلعب سواد ظهري دور لاقطات الطاقة الشمسية في أسطح منازلكم، يلعب البياض في بطني دور التمويه في بياض الثلوج الجليدية، فنحن نذير صدورنا نحو العدو فلا يستطيع تمييزنا.

الوحدة قوة

إن التجمع الكثيف من أفضل طرق حفظ الحرارة، ولذلك نعيش في جماعات كبيرة العدد قد يصل إلى المليون، وليس من المعقول أن تدعوا أننا نحن (البطارق) مَن اكتشفنا هذه الصيغة التي تحمينا من التجمد في العواصف الثلجية. فعندما نجتمع على شكل دوائر، فإن الحرارة تتزايد كلما اقتربنا من المركز، ولذلك نضع ضعافنا في المركز، بينما يتوزع الأقوياء حولهم ويديرون ظهورهم نحو الخارج، ويتناوبون فيما بينهم على الحلقات الخارجية، لينال الجميع قسطهم من الدفئ والحرارة. وبهذه التضحيات وهذا التعاون في مجتمعاتنا المتراصة، ينخفض الفاقد من الحرارة بنسبة (٥٠٪). وهذا النوع من التصرفات المثيرة، لا يمكن حل ألغازها بنظريات ساذجة كالقول بأنها "غريزة"... وكم يليق بكم أن تقولوا: إن هذه التصرفات، إنما هي توجيه إلهي نابع من الرحمة والشفقة الإلهية لنا بغير إرادة منا... تمامًا كالوحي الإلهي إلى النحل في أنماط حياتها وممالكها وتعاونها... وعندها تدركون الحِكمة التي تختفي وراء الحوادث بشكل أفضل، وتنجون بأنفسكم من إضفاء صفة الألوهية على الطبيعة، وتنقذونها من الشرك بالله الخالق الأحد.

يجب أن أعمل من أجل البقاء

يأتي عملي الكبير بالغوص في أعماق البحار في سبيل تأمين غذائي، على رأس أولويات نشاطي بعد المميزات الفيزيولوجية الفطرية التي مُنحتْ لي لأتمكن من الحياة في القطب الجنوبي. فأنا أستطيع السباحة بسرعة تصل إلى (٣٠) كم في الساعة بفضل الشكل الإنسيابي لجسمي وجناحي الضامرة القوية... ويمكنني البقاء تحت سطح الماء (١٨) دقيقة، وأغوص إلى (٢٦٠) مترًا في أعماق البحر وأصطاد. إن كميات الطاقة التي أصرفها، تزداد مع البرد، ولذلك يتوجب عليَّ أن أتناول كميات كبيرة من السمك المكتنز بالدهون والقريدس والمخلوقات البحرية الأخرى، فأسماك البحار الباردة تكتنز كميات كبيرة من الدهون. أغوص في مياه البحر ساعيًا وراء صيد الأسماك حتى ينفد الهواء المحتبس في الرئتين، تتحرك جناحي بقوة تؤمن لي السرعة في السباحة، بينما يؤمّن ذيلي المناورات والدوران المفاجئ. وإذا ما فوجئت بعدو يطاردني؛ فسُرعان ما أصعد إلى سطح الماء وأقفز إلى ارتفاع يبلغ مترين إلى البر أو إلى جزيرة جليدية عائمة. نتكاثر عن طريق البيض، فتبيض بعض أنواعنا بيضتين في العام، وتبيض أنواع أخرى بيضة واحدة. وحفظ هذه البيض دافئة في أعشاشها والعناية بالفراخ وحمايتها، قضية مهمة هي الأخرى في ذلك البرد القارس. فالعالِم الخبير، خلق لنا كل التدابير اللازمة لتأمين احتياجاتنا الطبيعية. تتعاون الأزواج على رعاية البيض داخل الأعشاش التي نصنعها من الحجارة والنباتات اليابسة. تترك الإناث البيض بعد إباضتها للذكور ليعتنوا بها، وتتوجه إلى البحار المفتوحة لتأمين الطعام الذي تحتاجه، حيث يكون الذكور قد نالوا من الغذاء ما يكفيهم واكتنزوا في أجسامهم الكثير من الدهون قبل استلام البيضة التي سيحتضنونها. يبقى الذكر طاويًا على الجوع وصابرًا لعدة أسابيع يصرف الطاقة التي يحتاجها مما اكتنزه جسمه من الدهون قبل أن يتوجه نحو البحث عن الطعام. فالبيضة لو تُركتْ قليلاً بلا رعاية، فإن نُموها سيضطرب. يحمل الذكر البيض فوق قدميه ويغطيه بالريش الذي يغطي بطنه حماية لها من البرد، حتى تعود أنثاه بعد أن يكتنز جسمها بالدهون من الغذاء الذي تناولته طيلة أسابيع، وتستلم عن زوجها مهمة رعاية البيضة، ويتوجه الزوج بدوره نحو البحار المفتوحة باحثًا عن طعامه وتخزين الدهون. يبقى الفرخ بعد خروجه من البيضة، في جيب دافئ من جلد البطن حتى يتم أسبوعه الثامن وكأنه في غطاء من لحاف يحميه من البرد. ثم تسعى الأنثى لإبقاء الفرخ في مركز مجتمع البطارقة.

وهكذا نحن البطارقة مزوّدون بالفِطْرة بشكل كامل لنعيش في القطب الجنوبي. فهل يمكنكم أن تدعوا بأن كل هذه التدابير المتخَذة والعناية الفائقة، كانت نتيجة تصادف أعمى أو أنها تكوّنتْ عبر سلسلة من التجارب والخطأ والصواب؟!

لقد شرحت لكم موجزًا بعض النعم التي لا تعد ولا تحصى مما وهبنا إياها خالقنا الخبير بعلمه المحيط بكل شيء... وهذا كل ما لدي، فلا تنتظروا من بطريق مثلي أكثر من ذلك. ولابد لي الآن أن أغوص في البحر حتى لا أتجمد من البرد، وأسعى لالتقاط الأسماك وتأمين رزقي، فزوجي يطوي على الجوع منذ شهر يرعى بيضتنا، وعليَّ الآن أن أعود لأستلم نوبتي منها... أستودعكم الله. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

أ.د. خالد الصمدي*

إذا القلب صفا، والروح زكى، والبدن طهُر، هفت الرؤى له وتنزلت عليه، وأخذته إلى عوالم من الجمال والبهجة، وأرته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. فيرتوي من ينابيع ذلك الجمال ويشرب من معين كوثره، في انتشاء روحي ولذة قلبية لا أحلى ولا أعذب منها.

* * *

(الموازين)

المنهاج النبوي في التربية

على منظومة القيم الحضارية الإسلامية

كان غار حراء المكان الذي التقى فيه عالم المادة والملكوت، وكشف الوحي عن أولى خطوات تغيير العالم بإعلان الرسالة الخاتمة، وكان مفتاحها ربط المعرفة بالقيم عن طريق القراءة باسم الرب وليس باسم أي شيء آخر: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥). فمصدر المعرفة هو الله، وغايتها معرفة الله، ولا خير في علم ومعرفة لا توصل إلى الله.

ونكاد نقول إن توعية الناس بهذا المنهج الجامع كان لب الرسالات السماوية كلها، ومن هنا لم تكن المعرفة في المنظور الإسلامي بما فيها معرفة الأحكام الشرعية مقصودة لذاتها، بل هي وسائل للوصول إلى بناء منظومة من القيم لا تنفك عنها ولا تنفصل، وإذا حدث بينهما انفصال أصبحت المعرفة وبالاً على الإنسان، ووكل الإنسان إلى نفسه وخبرته فكان ذلك خسار العالمَين.

وبقراءة متأنية في نماذج من القرآن والسنة، يبدو بجلاء جوهر هذا المنهج الجامع الذي يحتاجه واقعنا المعاصر لإعادة بناء منظومته الحضارية التي انفصل فيه العلم عن القيم فكان وبالاً على البشرية.

فقد ذكّرنا الخالق ﷻ بنماذج يتجلى فيها الاتصال والانفصال بين المعرفة والقيم، وما ترتب عن ذلك من نتائج

عبرة لمن يعتبر. فقد اغتر قارون بعلمه وماله الذي كانت مفاتح خزائنه تنوء بالعصبة أولي القوة قائلًا: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨) قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾(القصص:٨١).

وبارك الله تعالى في علم ذي القرنين وصنعته وخبرته حين ربط بين الخبرة وتوفيق الله في بناء سد يأجوج ومأجوج، قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾(الكهف:٩٧)، فلم يغتر بتفوقه، بل ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾(الكهف:٩٨).

وتقبل الله تعالى من ابن آدم الذي قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٢٧)، ولم يتقبل من الآخر الذي اعتمد على خبرته التي لم تمنعه من رد الفعل القاسي تجاه أخيه حين قال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾(المائدة:٢٧)، وهذا شأن المعرفة المنفصلة عن القيم؛ فهي لا تردع صاحبها من الوقوع في الظلم... والشواهد في عصرنا كثيرة تكشف فظاعة العلم حين ينفصل عن القيم.

وبالنظر إلى التطبيقات العملية للسنة النبوية لهذا المنهج المتكامل، نجد أنه ﷺ علّم الناس الصلاة وقال: "صلوا كما رأيتموني أصلي" (رواه البخاري)، ولكنه بيّن في نفس الآن، أن الصلاة التي لا تحجز صاحبها عن الفحشاء والمنكر، لا تزيده من الله إلا بعدًا... وأمر الناس بالزكاة وبيّن لهم أنصبتها ومقاديرها وأوجه صرفها ثم قرأ عليهم قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾(التوبة:١٠٣)... وعلّمهم الصيام وفرائضه وسننه ثم قال لهم: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع شرابه وطعامه" (رواه البخاري)... فما الفائدة إذن من معرفة أحكام الصلاة والزكاة والصوم ما لم تحجز صاحبها عن الوقوع في الزلل والإصرار عليه؟!

وغاية بياننا وتركيزنا على هذا المعلم من معالم المنهاج النبوي في التربية على القيم الإسلامية أمران: أولها تنبيه المربي إلى أن الغاية من التعليم لا تقف عند نقل المعرفة، وإنما النفاذ إلى مقاصدها وغاياتها واستثمارها في بناء منظومة من القيم لدى المتعلم. وثانيها تصحيح نية المتعلم وتحرير مقصده من طلب العلم الذي ينبغي أن تكون معرفة الله فيه أسمى الغايات.

القيم الإسلامية ليست قيمًا نظرية مثالية، وإنما هي خلاصة شريعة نزلت حسب الوقائع والأحداث، واستجابت لمشاكل الناس وقضاياهم... وليست فكرًا يبتغي المدنية الفاضلة التي لا وجود فيها للشر، وبالتالي فهي واقعية في مراميها وأهدافها.

بيان خصائص القيم الإسلامية

إن بيان خصائص القيم الإسلامية مدخل رئيس للتعامل معها فهمًا وتنزيلًا، كما أن إبراز هذه الخصائص، مدخل لبيان ما تتميز به القيم المستندة إلى المرجعية الإسلامية حين تقارن بغيرها من المرجعيات. كما تمكّن المربي من معرفة أنجح السبل والطرق الموصلة إلى بناء منظومة القيم الحضارية الإسلامية لدى الناشئة. والناظر في الكتاب الكريم وفي سنة النبي العظيم بنظر منهجي فاحص يجد إشارات دالة ينتج عن نظمها في عقد جامع لامع، الوقوف على الخصائص التالية:

أ- القيم فطرة ربانية: خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه، ومع روح الله ومنها زُرعت القيم في كيان الإنسان؛ فحبه للخير وكرهه للشر من روح الله، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(الشمس:٧-٨)، وقال: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾(السجدة:٩)، وبيّن ذلك رسول الله ﷺ حين قال: "الولد يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه" (رواه البخاري).

والناظر في أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، يجد منها "العدل، والبر، والرحيم، والعفو، والغفور، والشكور، واللطيف، والسلام، والمؤمن..." وغيرها من الصفات والأسماء التي طبع الله بها فطرة الإنسان حين خلقه من سلالة من طين، ثم نفخ فيه من روح العدل، والسلام، والرحمة، والغفران، والعفو، والصفح، واللطف، والشكر وغيرها من جليل القيم والخصال، ثم علمه الأسماء كلها، وحصنه وميّزه بالعقل، وأرسل إليه رسلاً تترى في الزمان والمكان تبصرة وذكرى، قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ﴾(الروم:٣٠)

فالإنسان ليس صفحة بيضاء لا توجيه ولا إرشاد فيها، كما أنه ليس صفحة سوداء مليئة بالآثام كما هو معروف في النظرية المسيحية، ولكنه مفطور على دين الإسلام وقيمه، وحين نزل إلى الأرض واختلط بالبيئة، اقترب أو ابتعد من هذه القيم بحسب المؤثرات. فرسم الله تعالى في كتابه وسنة نبيه وسائل وطرقًا لاكتساب الصفاء من الأدران والقرب من القيم الربانية الأصيلة في فطرة الإنسان.

ب- قيم واقعية: رغم أن القيم الإسلامية ربانية في مصدرها، إلا أن تنزيلها على الواقع بإرشاد من الوحي، طبعها بطابع الواقعية والنسبية، وأبعدها عن المثالية المطلقة التي تعتبر شيئًا منشودًا قد يتحقق بنسب مختلفة. والغاية من هذه الخصيصة أن يبعد الإسلامُ الإنسانَ عن التشاؤم من عدم تحقق القيمة في المجتمع بالشكل المثالي المطلوب، وتحفيزه إلى العمل على ترسيخ القيم في النفوس بحسب الطاقة والجهد، ويكل بعد ذلك أمره إلى خالقه ويتضرع إليه بالدعاء، ليعينه على تحقيق قصده ومراده.

فالقيم الإسلامية بهذه الصفة إذن ليست قيمًا نظرية مثالية، وإنما هي خلاصة شريعة نزلت حسب الوقائع والأحداث، واستجابت لمشاكل الناس وقضاياهم، وليست فكرًا يبتغي المدنية الفاضلة التي لا وجود فيها للشر، وبالتالي فهي واقعية في مراميها وأهدافها قاعدتها قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾(طه:٨٤)، والعجلة هنا الترقي في سلّم الرضا بحسب الطاقة والاستطاعة: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦).

فالعدل على سبيل المثال؛ قيمة إسلامية راسخة، ولكن تحقيقه في الواقع مدافعة للظلم بقدر الاستطاعة، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: "إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار فليأخذها أو ليتركها" (رواه بشر بن شعيب).

على المربي أن يلجأ إلى القرآن الكريم وما صح من سنة رسول الله ﷺ ليبني القيم في النفوس على تقوى من الله ورضوان، وأن يعرض عن كل كلام لا مستند له ولو كان أثره في النفوس عظيمًا، لأنه سرعان ما يهوى ويندثر، والقيم أساسها الثبات والاستقرار.

والحب قيمة إسلامية عظمى، ولكن رسول الله ﷺ في العدل بين زوجاته سأل اللهَ تعالى ألاّ يلومه في الميل العاطفي الذي لا يملك فيه صرفًا ولا عدلاً. والحفاظ على مال اليتيم قيمة اقتصادية عظيمة في الإسلام، ولكن يوجد إلى جانبها وعيد يحذر من أكل مال اليتيم لوجود هذه الظاهرة في الواقع، وستبقى موجودة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأن بضدها تتميز الأشياء.

وقس على هذا مختلف القيم الإسلامية، فرغم كونها مطلقة في أصولها ربانية في مصدرها، فإن إنزالها على الواقع يحكمه التدرج والحسنى لنفي القيم السيئة بالحسنة قال ﷺ: "وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن" (رواه الترمذي).

جـ- قيم عالمية: رغم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فإن خطابه بقيمه وأحكامه وأخباره ومواعظه ووعده ووعيده موجه للعالمين. ونحن حين ندعو إلى القيم الإسلامية، فإننا لا ندعو إلى خصوصياتنا كأمة إسلامية، فإن ذلك لا يعدو أن يكون مزيدًا من الانحباس لهذه القيم حتى لا تنطلق في فضائها العالمي الواسع وتنسجم مع الخطاب العالمي الذي يحملها للناس كافة (خطاب الوحي)، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(سبأ:٢٨) وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧).

والقاسم المشترك بين العقلاء من الناس هو الالتزام بالقيم الفاضلة مهما اختلفت مرجعياتهم... فالعدل حسن والظلم سيّئ، والكذب والصدق ضدان لا يجتمعان، والبخل والشح مكروهان والسخاء والبذل مطلوبان.

فتلك وأضدادها قيم عالمية هي أصل الفطرة جاء بها الإسلام العالمي؛ فقيم الإسلام التي تضمنتها رسالة الأنبياء والرسل كافة وختمها محمد ﷺ ليست للمسلمين بخصوصهم، وإنما هي منفتحة على سائر الأمم والشعوب ينهلون منها فتقوم سلوكاتهم وتعدل من اتجاهاتهم، فتكون هذه القيم العالمية مدخلاً إلى الإسلام عند كثير من الأمم والشعوب والأفراد.

وقد أخذ محمد ﷺ بهذه القيم العالمية وجاء ليتممها. والإتمام يعني أن الإسلام أقر قيمًا إنسانية موجودة بالجبلة والفطرة لدى الناس مهما اختلفت مللهم ونحلهم، وذلك مدخل لهم كي ينتبهوا إلى قيم الإسلام الخالدة فيسارعوا إلى اعتناقه كاملاً غير منقوص إتمامًا لنعمة الله عليهم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣).

د- قيم مناسبة ومتكيفة: حين نقرأ قول عبد الله بن مسعود ﷺ: "ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة"، ندرك أن خطاب الإسلام الداعي إلى تمثل القيم الإسلامية لن يكون واحدًا؛ والخطاب يضم المحتوى والوسيلة... ومن هنا ندرك أن لكل زمان خطابه ولكل فئة عمرية خطابها، وأن الوسائل الموصلة لهذه القيم تتطور وتتغير. لذلك لم تكن القيم الإسلامية خاصة بزمان ولا بمكان، إنما هي قيم قابلة للنشر والتداول بكل الطرق والوسائل النافعة والمشروعة، تتكيف معها ولا تؤثر في جوهرها. لذلك كان تركيز القرآن الكريم، على أهمية حضور القيمة في المجتمع ولم يعين وسيلة معينة لذلك. فالعدل يتحقق في المجتمع بوسائل وأساليب مختلفة، وقد يتحقق في مختلف مظاهر الحياة العامة، داخل الأسرة، وفي الأسواق، وفي المنظمات والهيئات، وغير ذلك بصور شتى وبوسائل مختلفة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾(الأنعام:١٥٢).

وأمر الإسلام بتحقق الشورى في المجتمع ولم يحدد الكيفية والوسيلة، وأمر بأداء الأمانات إلى أهلها بعد حفظها ولم يحدد وسائل الحفظ لأنها متغيرة، وأمر بالتكافل الاجتماعي وترك طرق تحقيقه مفتوحة على اجتهادات المقدمين عليه، وأمر بالإنفاق في سبيل الله على إطلاقه ليعم الخير كل مناحي الحياة ويغطي حاجات الناس المتجددة؛ ولهذا ينبغي أن تحمل القيم الإسلامية إلى كل أهل عصر بما ساد عندهم من وسائل، حتى تكون قادرة على التأثير في سلوكاتهم والتعديل من اتجاهاتهم وتشكيل تصوراتهم.

ومن مظاهر التكيف أيضًا، قدرة هذه القيم على الاستجابة لحالة متلقيها العمرية والنفسية والوجدانية والعقلية، فلكل أسلوبه وطريقه ومنهجه؛ فالمربون الناقلون للقيم الإسلامية لهم قدرات وطاقات، والمتعلمون لهم قدرات وطاقات أيضًا، ولهذا لم يكن للنظرية التربوية الإسلامية الحاملة للقيم خطاب واحد، وإنما يتنوع خطابها بفعل مرونته ويتكيف مع مختلف الحالات.

هـ- قيم مستقرة ومستمرة: لن تصبح القيمة قيمة راسخة في نفس الإنسان، إلا إذا تكرر حدوثها في سلوكه وأصبحت سجية وجبلة لا تفارقه، فلا يقبل من الإنسان أن يكون صادقًا حينًا وكاذبًا حينًا، كما لا يقبل منه أن يكون عادلاً وظالمًا في مواقف مختلفة... ومن هنا، نفهم قول رسول الله ﷺ: "الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب صديقًا" (رواه الترمذي). وهذا اللقب لا يصل إليه صاحبُه إلا بالمداومة والاستمرار والتعود... وقد تلتصق بالشخص الصفة المعاكسة (الكذاب) بالمداومة والاستمرار والتعود أيضًا كما هو وارد في الجزء الآخر من الحديث: "والرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب كذابًا". يقول الدكتور أحمد مهدي عبد الحليم: ومن الخصائص الأساسية في القيمة، تكرار حدوثها بصفة مستمرة؛ فمن يصدق مرة أو مرات، لا يوصف بأنه فاضل في سلوكه، وإنما تتأكد القيمة وتبرز الفضيلة الخلقية في سلوك الإنسان إذا تكرر حدوثها بصورة تجعلها عادة مستحكمة أو جزءًا من النسيج العقلي والسلوكي لصاحبها وعنوانًا لهويته.[١]

ومن هنا كان تنديد القرآن، بأولائك الذين لا يثبتون على طريق الهدى والحق، ويتراوح سلوكهم بين الحق والباطل وبين الهدى والضلال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾(النساء:١٣٧).

وكان تنديد القرآن بالنموذج البشري الذي لا يستقيم على فعل الخير ويؤدي منه القليل، ثم يقعد عن مواصلته أو يكف عنه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۞ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾(النجم:٣٣-٣٤)، أي ضعف عن الاستمرار في العطاء أو كف عنه مع توفر مقوماته.[٢]

ولذلك كانت المجاهدة والمثابرة، لحمل النفس على استمرار التمسك بالقيم الإسلامية حتى ترقى من الإسلام إلى الإيمان إلى الإحسان، فيعبد الإنسان اللهَ كأنه يراه... وتلك أحلى ثمرات القيم الإسلامية التي لا تتحقق إلا بالتكرار والاستمرار والاستقرار.

الحكمة وفصل الخطاب في بناء القيم

القيم دواء، ولا يمكن للدواء أن يكون مفيدًا ما لم يجد لدى

مـن يناولـه أو يتناولـه مـن الخبرة ومن الاسـتعداد النفسـي مـا يجعل الجسـم يقبـل المـداواة بارتيـاح. والمتأمـل في سـنة سـيد الأطباء عليه أفضـل الصلاة وأزكـى التسـليم، يقف أمـام توجيهات علمية وتربوية ناظمة لأسلوب الخطاب لدى المربين، تمكنهم من الوصول إلى مقصدهـم مـن أفضل السـبل. وتتحدد هذه التوجيهات في:

• **الاسـتناد إلـى الدليل الشـرعي الصحيـح**: مـن القـرآن الكريـم أو من السنة والسيرة النبوية العطرة ومن أقوال وتجارب السلف الصالح، ممن شهدت لهـم الأمة بالفضل والصـلاح المقرون بالعلـم، فـلا مجـال لدغدغـة العواطـف بأخبـار القصـاص والوضاعين وأصحاب الخرافة، فما بني على باطل، سـرعان مـا يهـوى في نفـس الإنسـان حين يـؤوب إلى عقلـه وفكره ليسائله بقوة الحجة والمنطق.

ولذلـك وجدنا في تاريخ تدوين السـنة الشـريفة، مواقف عانـى فيهـا أئمة الجرح والتعديل من أخبـار القصاصين ممن حسـنت نيتهم، فكانوا يقولون: "نحن نكذب له لا عليه" أكثر مـن معاناتهم مـع الكذابين والوضاعين ممن خبثت سـيرتهم وسـريرتهم، ولكن الله وفقهم لكشـف انتحـال المبطلين على اختلاف مشاربهم.

وانطلاقًـا مـن ذلـك، علـى المربـي أن يلجأ إلـى القرآن الكريم وما صح من سنة رسول الله ﷺ ليبني القيم في النفوس علـى تقوى مـن الله ورضـوان، وأن يعرض عـن كل كلام لا مسـتند لـه ولو كان أثره فـي النفوس عظيمًا، لأنه سـرعان ما يهوى ويندثر، والقيم أساسها الثبات والاستقرار كما رأينا.

• **حسـن التواصل**: قال تعالـى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِـكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبـة:١٢٨) وقـال أيضًا: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْـتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾(آل عمران:١٥٩).

هـذه وغيرها آيات كريمة تتحدث عن خصائص الخطاب النبوي وترسـم طريقه بتوجيهـات الوحي، وقد وجدنا الرأفة، والرحمـة، والحكمة، والعـزة، والعفو، والتشـاور وغيرها من أبـواب ومداخل التواصـل مع النـاس، ظاهـرة جلية في تصرفـات الرسـول الأكـرم وهـو يدعو إلى مكارم الأخلاق؛ سكنات وحركات وكلمـات نافـذة إلـى النفـس مؤثرة في السـامع إلـى حـد الاقتنـاع يجمل بكل مبلغ عن رسول الله ﷺ أن يترسمها.

قيم الإسلام التي تضمنتها رسالة الأنبياء والرسـل كافة وختمها محمـد ﷺ ليسـت للمسلمـين بخصوصهـم، وإنما هي منفتحة علـى سائـر الأمم والشعـوب ينهلون منهـا، فتقوم سلوكاتهم وتعـدل من اتجاهاتهـم، فتكون هـذه القيـم العالمية مدخـلاً إلى الإسـلام عنـد كثـير مـن الأمم والشعوب والأفراد.

فقد كان رسـول الله ﷺ يعتمد القصة والمثـل لتقريـب الأفهـام: "مثلي ومثل الأنبيـاء مـن قبلي كمثل رجـل بنى بيتًا" (رواه البخـاري)، وقولـه ﷺ: "أرأيتـم لو أن نهـرًا بباب أحدكم يغتسـل منـه كل يوم خمـس مـرات أيبقى مـن درنه شـيء"، قالـوا: لا يا رسـول الله، قال ﷺ: "فكذلـك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا" (رواه البخاري).

وكان رسـول الله ﷺ يقـرأ نفسـية السـائل وقابليتـه للتعلم فيجيبـه على قدر مـا ينفعه؛ فقد جاءه رجل فقـال: أوصني يا رسـول الله، فقـال: "لا تغضـب"، فقال السـائل: زدنـي، قال: "لا تغضـب"، وكـرر مـرارًا: "لا تغضب" (رواه البخـاري). ولكننا وجدناه ﷺ يقول لمعاذ ﵁ بعد أن أجابه عن سؤاله حين قال: يـا رسـول الله دلني على عمـل يدخلني الجنـة ويباعدني عن النار، "ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه... ألا أدلك على أبواب الخير... ألا أدلك على ملاك ذلك كله" (رواه الترمـذي)، يقتـرح عليه الزيادة من النصيحة، والسـبب؛ ما ذكرنا من حكمة في النظر إلى قابلية المتعلم للتلقي، وهي من أرقى تقنيات التواصل التربوي التي يعرفها الفكر التربوي المعاصر.

وكان رسـول الله ﷺ يعبـر بملامـح وجهـه عـن السـخط والرضى، ويغير من هيئة جلسته أثناء الكلام لبيان أهمية الأمر وخطورتـه، كما هو الشـأن فـي حديثه عن شـهادة الزور قال راوي الحديـث، وكان متكئًـا ثـم جلـس وقال: "ألا وشـهادة الـزور" مـرارًا حتـى قلنا ليتـه سـكت (رواه البخـاري)، وفي هذا الحديث إشارة إلى تقنية التكرار أيضًا.

و يشـير ﷺ بأصابعه لتقريب الأفهـام مثل قوله: "بعثت أنا والساعة كهاتين" وضـم السبابة والوسطى (رواه البخاري).

وهكذا تنسـج السـنة والسـيرة النبوية نسـيجًا محكمًا من

طرق التواصل الناقلة للقيم، حتى تترسخ في النفوس وتصبح سجية طيعة ثابتة مستقرة.

• **الدعوة إلى التمثل الوسطي المعتدل:** "أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل" (رواه البخاري)؛ فليست العبرة بكثرة العمل، ولكن بنوعه والمداومة عليه... والوسطية والاعتدال في تمثل الأحكام الشرعية سبيل لاستمرار القيم وواستقرارها، بل يمكننا القول إن الوسطية والاعتدال دليل قائم على هذا الاستقرار، ولذلك كان ﷺ يقول: "اكفلوا من الأعمال ما تطيقون" (رواه البخاري). واشتهرت في السنة النبوية قصة الرهط الذين جاؤوا إلى بيوتات النبي ﷺ يسألون عن أعماله فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا ما قالوا وألزموا أنفسهم بما لم يلزمهم به الله، فقال رسول الله ﷺ معقبًا وموجهًا لسلوكهم نحو الوسطية والاعتدال: "أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له غير أنني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني" (رواه مسلم).

بناء منهج عملي لتقويم تمكن القيم من النفوس

يجمع المربون أن تقويم المعارف والمهارات الظاهرة ميسور ومقدور، باستعمال أساليب التقويم الشائعة القائمة على اختبار الذاكرة، أو ملاحظة السلوك العملي، فحين تقول "أن يؤدي التلميذ صلاة الصبح بخشوع"، فأنت تستطيع أن تقوّم معارف الطالب بالإنصات إلى قراءته الهجرية لآي القرآن الكريم، وتقوّم سلوكه العملي من خلال ملاحظة حركاته من تكبيرة الإحرام إلى السلام، لكن أنى لك أن تقيس قيمة الخشوع، فهو شعور وجداني داخلي لا يقاس. وقد استعصى على الباحثين في التربية وعلم النفس، بناء منهاج عملي لتقويم القيم، فأنتجوا فيه بحوثًا ودراسات قليلة إذا ما قورنت بالإنتاج المتعلق بتقويم المعارف والمهارات. وخلاصة ما وصلوا إليه، أن تقويم القيم ينبني على قدرة المدرس على صياغة مؤشرات خارجية في سلوك المتعلم قابلة للملاحظة المتكررة، لكي تقوم دليلاً على نضج قيمة من القيم في وجدان المتعلمين.

وقد نظرت في سيرة رسول الله ﷺ فوجدت هذه النظرية التربوية الحديثة، قائمة على أصولها في حديث رسول الله ﷺ حين يقول: "إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان" (رواه الترمذي)؛ فالذهاب إلى المسجد، سلوك خارجي قابل للملاحظة، وتكراره علامة دالة على قيمة الإيمان في نفس هذا الشخص... ويتضح هذا أيضًا من التأمل في قول رسول الله ﷺ: "أن رجلاً رأى كلبًا يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعله يغرف له به حتى أرواه فشكر الله فأدخله الجنة" (رواه البخاري)، وأن "امرأة دخلت النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض" (رواه البخاري)، وأن "الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات" (رواه البخاري)... فتلك سلوكات خارجية على بساطتها دالة على مدى تمكن القيم من وجدان الإنسان.

وهذا المنهج يجعلنا نقر بأن المربي ينبغي ألا يكتفي بالتذكير بالقيمة والتوعية بها، دون أن يرعاها ويتابع نموها وتطورها في وجدان المتعلم عن طريق القدرة على صياغة مؤشرات للتقويم، يتابع تكرر حدوثها في سلوك المتعلم حتى تقوم دليلاً على تمكن القيمة من وجدانه أو حاجتها إلى مزيد من الجهد. وفي ضوء ذلك يقرر السبل الكفيلة بدعم ما كان إيجابيًا وعلاج ما كان سلبيًا عن طريق التجديد في طرق وأساليب ووسائل التربية.

تلكم قراءة راصدة وكاشفة لمنظومة القيم الحضارية في السنة النبوية، قرأناها في سياق حاجة واقعنا المعاصر حتى تجيب عن إشكالاته وهمومه، وتأسس لرؤية مغايرة لما هو سائد في واقعنا من مرجعيات تقف عند حدود ما هو مادي، فكانت أقرب ما تكون إلى الحداثة منها إلى الحضارة التي تتميز بالجمع بين الرفاه المادي والارتقاء القيمي والروحي، وتلكم معالم في المنهاج النبوي للتربية على القيم وبنائها في النفوس التي يعتبر تغييرها أساس النهوض الحضاري، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١). ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.

الهوامش:

(١) تعليم القيم الفريضة الغائبة، مجلة المسلم المعاصر، العددان:٦٥-٦٦، ١٩٩٢.

(٢) تعليم القيم الفريضة الغائبة، مجلة المسلم المعاصر، العددان:٦٥/٦٦، ١٩٩٢.

د. محمد صالح ناصر*

ابتهال أمام بيت اللّه

أناجيك في الصرصر العاتية ... وفي هدأة النسمة الساجيه
وعند ابتسام الضحى وانسيا ... ب الخرير تدغدغه الساقيه
وعند سكون الخلائق والليـ ... ـل تسابيحه نغمة حانيه
وعند التأزم عند الرضى ... تثبت عقلي ووجدانيه
وفي ذلتي خاشعا ارتجيـ ... ـك لتمنحني العفو والعافيه
وأدعوك حيث دعاك نبـ ... ـيي أيا رب من عمق أعماقيه
وما ثم لفظ يعبر عني ... ويحمل عني أشواقيه
هنا في جلال اللقاء خرسـ ... ـت ليفصح دمعي وآهاتيه
هنا خفقاتي دعاء تسا ... مى يرفرف في جنة عاليه
هنا حيث تغدو الخلائق مو ... جا تدافع خائفة راجيه
وابصرني قطرة في المحيـ ... ـط تقاذفها الموجة العاتيه
وأدرك أني الضعيف الضعيـ ... ـف وأنت إلهي أدرى بيه
فجنب سفيني ريح الهوى ... وخذني إلى رحمة صافيه

(*) شاعر وأديب جزائري.

د. محمد خروبات*

الأسرة

وتحديات الكلام المعاصر



إن للكلام ضرورته وأسبابه ودواعيه، وله أهميته من وجه إيجابي آخر، لأن الكلام عن الأسرة هو الكلام عن كل شيء، فهو يستبطن المجتمع والأمة والوحدة والقومية والوطنية والدولة مرورًا بالقبيلة والفصيلة والعشيرة... إنه الكلام عن وجود إنسان وعن كل ائتلاف بشري: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(الأنفال:٦٣).

والأسرة هي نواة للتعدد والتوالد، هي خلية تكوين الإنسان وتشييده وإعداده، بل هي أساس صناعة الإنسان، "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أويمجسانه" (رواه البخاري).

الفرد والأسرة

الإنسان يفيض من الأسرة كما يفيض الماء من القِدر، بقدر ما تكون الحرارة قوية بقدر ما يكون الفيضان قويًّا، وبالمثل فبقدر ما تكون أواصر الاجتماع قوية

وروابـط الـزواج حقيقيـة بقـدر ما يفيض الإنسـان مـن قِدر الأسرة لينطلق في الزمان ويمتد في المكان: "تكاثروا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة" (رواه البيهقي).

لكـن ليس كل كلام عن الأسـرة هـو كلام إيجابي ونافع؛ فمـن الكلام ما كان أزمـة، وكلما تركب هذا النوع من الكلام وتعـدد كلما تركبت الأزمة وتعـددت، ولذلك صح القول أن "من الكلام ما قتل"، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(البقرة:١٩١).

إن أشـد ما تعانـي منه الأسـرة اليوم كثرة "الـكلام" الذي يسـتهدفها؛ كلام اختلط فيه السوسـيولوجي بالأنتروبولوجي، والسياسـي بالاقتصادي، والأدبي الشاعري المجرد بالفلسفي الأكثـر تجريـدًا، والأيديولوجـي بالسـيكولوجي، ثـم تحضر إحصـاءات وأرقام وجداول وأحـكام لا ندري ما مصداقيتها، ووسـط هذا كله، تغيب خصوصية الأسـرة وتتوارى المشاكل الحقيقيـة، فتظهـر أشـباح القضايا للوجـود مفتعلـة ومختلقة تمامًا، كأشباح مُثل أفلاطون.

إن السـكوت أمـام هـذا النـوع مـن الـكلام الـذي أصبح -للأسـف- فاشيًا وجارفًا، يعطي لهذا النوع من الكلام حجية وصلاحيـة فـي أن يروج ويموج، والصمـت أمامه -بأي مبرر من المبررات- يشـكل عجزًا، لأن الحقيقة تتوارى وتتخلف، فإذا سكت الذي يعتقد أن رأيه هو الصواب ونطق الذي يعتقد أن رأيـه هو الخطأ، فمتى سـيظهر الحـق؟ وهل كل حق يظهر بالصمت والسكوت؟

مشاكل الأسرة

للأسـرة مشـاكل، ونـوع مـن هـذه المشـاكل هـو مصاحـب لكينونتهـا لأنـه لصيـق بخصوصيتهـا، ومـن هنـا كانـت هذه المشـاكل مـن نـوع العقبات التي علـى الأسـرة أن تقتحمها، ولا نجعـل منها فضاء للمغالاة ولإطـلاق أحكام جارفة، إنها في كل أسـرة، فهي في أسـرة العصر القديم وفي أسرة العصر الوسـيط وفي أسـرة العصر الحديث والمعاصر، وبكل تأكيد هـي في أسـرة عصر المسـتقبل.. إنها عقبة يجـب أن تقتحم: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾(البلد:١١).

أمـام هـذه المشـاكل المفترضـة توجد مشـكلتان مفتعلة، افتعلهـا هـذا النوع من الـكلام الذي نطلق عليـه "علم الكلام الأسري"، وهو مزدوج السلبية:

الأولـى: إنه ولّـد خطابـات مشـحونة بمصطلحـات غير مفهومة، كوّنها في سياق وأسقطها على الأسرة ومشاكلها في سـياق آخر، فزاد إلى مشـاكل الأسـرة مشاكل ليست لها على الحقيقة.

الثانية: إنه يشـكل في مجموعه عقبـة كأداء أمام موضوع الأسرة، حيث تصبح أمامنا قضيتان: قضية الأسرة ومشاكلها التي يجب أن تحل، وقضية هذا الكلام المتراكم كيف نتعامل معه.

هنا يصبح الخطاب الإسلامي أمام جبهات متعددة:

١- كيـف يقدم النصوص الشـرعية ذات الأحكام الصافية مـن دون تحميـلات أيديولوجيـة وتفريغـات مذهبيـة، يأخذ الأحـكام من النصوص، والنصوص مـن المصادر، ويفقه كل ذلك بالأسباب العلمية والطرق المنهجية؟

٢- كيـف يقدم الأحكام الشـرعية بالتفعيل مما تعاني منه من تعطيل، وذلك على جميع المستويات؟

٣- كيـف يـذب عن هـذه الأحكام السـلبيات التي تلصق بها، وينفي النعوت القدحية التي توصف بها، ومن ضمنها أن التشريع الأسري هو سبب أزمة الأسرة ومشاكلها.. وأن الحل يكمن من إيجاد تشريع وضعي؟

٤- ثـم كيـف يرصد المشـاكل الحقيقية للأسـرة ويتابعها علـى كل الأصعـدة، وكيـف يقـدم في نفـس الوقـت حلولاً إيجابية ونافعة؟

إن الجواب يجب ألا يكون مجزءًا، كل قضية تعالج على حـدة، بـل يتم فـي طلقة فكرية واحـدة، وهـذه الطلقة تحتاج إلى حسـن الرصـد، وجودة المتابعة، والصبـر على المطالعة، ثـم الصراحـة والوضوح، تلك هي محنة الخطاب الإسـلامي الإصلاحـي المعاصر. أما الكلام الأسـري المفتعل للأزمات فهـو خطـاب متحـرر مـن كل القيـود، لأنـه ينظـر مـن كبوة تخصصية وأيديولوجية واحدة، وليس هذا كذاك.

إننا نتكلم في هذا الموضوع لأسباب منها:

أ- أن نكون في مستوى الحدث... فإن الخطاب الإسلامي القديـم حـول الأسـرة لم يكن علـى هذا الوصـف من الحدة والصرامـة والصراحـة، ولم يكـن يتنـاول ذات الموضوعات التـي يتناولهـا اليوم لسـبب واحد؛ هو أن الأزمـة لم تكن في الماضـي وأصبحت اليوم... فالعلاقة بين الزوجين قد تغيرت كثيـرًا عما كانت عليه في الماضي، لم يكن الأقدمون يعرفون هذه المشـاكل، لأن الأسـرة على العموم كانت مسـتقرة، كل قـد عـرف حقوقـه وواجباته وفق الشـريعة الحاكمـة والعرف

السائد... وليس بصحيح ما يقال إن جانب الحقوق والواجبات كان مختلاً منذ القدم ولم يعالج إلا في العصر الحديث، وكأن في هذا العصر عقولاً والماضي لا عقول فيه، وفي هذا العصر حقوقًا والماضي لا حقوق فيه... إن الأصل في القضية، هي أن هناك تغيرات هزت المجتمع الإسلامي بكل مكوناته، فاهتزت معه الأسرة بكل ثوابتها ومتغيراتها.

لا ننكر أن هناك مساسًا ببعض الحقوق من هذا الجانب أو ذاك، لكنه لم يصل إلى هذه الدرجة الكارثية.

الإنسان يفيض من الأسرة كما يفيض الماء من القِدر، بقدر ما تكون الحرارة قوية بقدر ما يكون الفيضان قويًّا، وبالمثل فبقدر ما تكون أواصر الاجتماع قوية وروابط الزواج حقيقية بقدر ما يفيض الإنسان من قِدر الأسرة لينطلق في الزمان ويمتد في المكان.

ب- ضرورة تقديم علاج للمرض العضال الذي ألمَّ بالأسرة اليوم، علاجٍ لا يتم بالكلام المجرد، بل يتوجه صوب صيدلية الإسلام العامرة ليأخذ وصفتين، كل وصفة هي أسلوب علاجي ناجح: أسلوب العلاج لمن وقع، وأسلوب الوقاية لمن لم يقع، و"الفقه الوقائي" هو جانب مهم من الشريعة الإسلامية ويجب أن يفعَل.

ج- رصد المشاكل وتحقيق الشبهات والرد على البدع والمنكرات التي تمرر عبر الفكر المُفتت لكيان الأسرة، والطامع في النيل من أصولها وخصوصيتها.

د- محاولة البحث عن مقومات السعادة وتحقيقها للأسرة، فالجانب المفقود في الأسر اليوم هو "السعادة"... فكيف نعيد هذا العنصر إلى الحياة اليومية للزوج والزوجة والأطفال؟

علم الكلام الأسري

إن "علم الكلام الأسري" هو خطاب أنثوي بطبعه، لأنه يتمركز حول الأنثى بشكل غريب، ولم ينظر إلى الأنثى في خصوصيتها المتزنة لينصفها من موقع إنصاف الرجل والطفل. فكل حق من حقوق الزوجة والزوج والطفل، يجب أن تتم من موقع النظر في حقوق كل الأطراف لا من موقع طرف واحد. ولا ندري ما الذي هيَّج بعض الخطابات الذكورية عن الأنثى، حتى أصبحت هي الفكرة الأساس لإعادة النظر في كل شيء، لأن كل شيء من التراث الإسلامي -حسب هذا التصور- كتب بعقلية ذكورية، والعقلية الذكورية طبعت ذكوريتها على كل الإنتاجات الثقافية في الحقل المعرفي الإسلامي: العقيدة والفقه وعلوم اللغة والنحو والفلسفة والتصوف... هكذا تتم العودة إلى الإنتاجات القديمة، فيحصل التكلف في البحث والتفتيش عن نص أو نصين تُبنى عليهما ما يفيد أن الخطاب خطاب ذكوري، وبالتالي فإن هناك ظلمًا للمرأة، فمن اللغة يتصيدون من ألفية "ابن مالك" قوله: "إن أصل التأنيث هو التذكير"، ويتصيدون من الفقه أن الفقهاء والأصوليين سيَّدوا الرجل على المرأة بالولاية والقوامة والتعدد، كما سيَّدوه في الإرث بأن ضاعفوا حصته على حصة المرأة ضعفين، وفي السياسة الشرعية لا وجود للمرأة، لأن الشروط التي وضعوها للخلافة هي العقل والبلوغ والإسلام والذكورة، وفيمن سيخلُف النبيَّ ﷺ لم ينصرف الذهن إلى المرأة، بل إلى الرجل فقط.

أما الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، فسجلوا عليهما أن خطابهما يتكلم في كل شيء سوى الأسرة وحقوق المرأة والعلاقة الزوجية... فالمرأة لا وجود لها في الخطاب الكلامي والعقدي والفلسفي القديم، أما الكلام عن "الحب" في الفلسفة وحتى في الشعر العربي، فهو ذكوري المنطلق لأنه يخص الرجل أكثر مما يخص المرأة.

ويُتهم الخطاب الصوفي بدوره؛ فالحب والوجدان لا يتوجهان صوب المرأة بل صوب الروح.

وهكذا يتكلف الخطاب المتمركز حول الأنثى تأويل النصوص، ويتعسف في قلب الحقائق ليخلص في النهاية إلى أن الثقافة الإسلامية هي ثقافة متحاملة على المرأة، أقصت المرأة بالمرة، وسادت فيها الثقافة الذكورية، وطبعت بجنسية الذكور لتكون النتيجة أن المرأة في الأسرة مظلومة ومهضومة الحقوق، وأن هذا الظلم في هدر الحق سببه الموروث الثقافي، ليكون المطلب في النهاية هو تصحيح مكونات هذه الثقافة وإصلاح مسارها، إنها شبهة من نوع جديد، شبهة غريبة وشاذة لأسباب منها:

• إن هـذا الـكلام كلـه موجـه ولا داعـي لتبريـر ذلـك، فالشواهد والوقائع عليه بالعشرات.

• إنها تجاوزت الحد المسـموح به في معالجة المشـاكل الأسـرية، لأنها تمادت إلى التـراث والثقافة والهوية والتاريخ والحضارة ...إلخ.

• إن تمثلها للتراث هو تمثل ناقص وضعيف جدًّا، يغلب عليه الانتقاء والتجزيء والتأويل المفرط والتحامل.

• إن القضايـا المسـتنبطة، لـم تتحكم فيهـا قواعد البحث العلمـي، بـل سـادت فيهـا الرغبـة الأيديولوجيـة والمقصـد التجزيئـي التقسـيمي، كأن المرأة طـرف والرجل طرف آخر، وكأن الأسرة هي خاصة بجانب واحد من دون الآخر.

• غياب النظرة التكاملية التي تتجسـد في النظرة الشمولية من موقع المصلحة العامة ومن منطلق الأصول والمرجعيات، مما يجعل هذا التصور تصورًا تدميريًّا.

لنكـف الآن عـن مطـاردة هـذا النوع من الـكلام الذي لا يثبـت علـى حال، ولنقل إن للأسـرة معنى فـي الوجود، ولها مقومـات ومبادئ تجـب معرفتها، والجهل بهـا يوقع في مثل هذه المخازي.

فأمـا المعنى فهو المفهوم الذي يجب إدراكه؛ إدراكه على مسـتوى اللغة التـي نتخاطب بها، وعلى مسـتوى الاصطلاح الذي يراد لها.

الأسـرة لغـة مـن "أسـر" وهـي الـدرع الحصينة، وأسـره يأسـر أسـرًا وإسـارة: شده بالإسـار، والإسار ما شـد به وهو القيـد، ومنه الأسـير، وفي التنزيـل: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَـدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾(الإنسـان:٢٨)، أي شـددنا خلقهـم. وأسـرة الرجـل: عشيرته ورهطه الأدنون لأنه يتقوى بهم.

أمـا المعنـى الاصطلاحي فهو لا يبتعد عما جاء في اللغة، فالأسـرة من الشـدة والصلابـة والقوة، ولذلـك فهي أقوى ما يكون في المجتمع، وتطلق على عشيرة الرجل الذين هم تحت مسـؤوليته مـن زوجة وأطفـال وكل من كان تحـت إعالته... وإنما سـميت بذلك، لأنه بهم يتقوى وبهم يشـتد عوده ويقوم صرحـه، ولذلك كان أهل الجاهلية كثيري الافتخار بالعشـيرة والقبيلة والرهط والآباء والأنسـاب... وللنسـب دلالته القوية هنـا، فهو أسـاس قيام الأسـرة، والأسـرة هي التـي تدل على النسـب الحقيقـي للرجل أو المـرأة، ولا يوجد في أية أمة، ما يوجد لهذه الأمة من خصوصية في المحافظة على الأنسـاب.

وفي الحديث الصحيح: "ليس من رجل ادعى لغير أبيه -وهو يعلمـه- إلا كفـر بـالله، ومـن ادعـى قومًا ليس له فيهم نسـب فليتبـوأ مقعده مـن النـار" (رواه البخاري)، ولذلـك كانت العرب تعـول فـي معرفـة الرجل على نسـبه فيقولون له: "انتسـب لنا حتـى نعرفـك"، ولذلـك يكون من المسـتحيل طلب النسـب خارج الأسرة، فالأسرة حافظة للأنساب بل بها يتم.

وفـي إطار التمـاس المعنى الاصطلاحي للأسـرة -الذي يكاد يغيب للأسف- فإن للأسرة معالم يجب تحديدها، ومنها الصـورة والسـبب والمقصد والغايـة والمكونـات والثمرات والأصول والمرجعيات.

إن الفقـه السـليم لهـذه المعالم من شـأنه أن يعطـي فقهًا صحيحًا وسليمًا لمغزى الأسرة التي نتكلم عنها.

إن صـورة الأسـرة هـو بيت الزوجيـة، إذ لا توجد أسـرة خارج بيت الزوجية.

وإن سـببها هو الزواج، فلا أسـرة بلا زواج، وإن مقصدها هو تكثير النسل، فلا نسل بدون أسرة، وإن الغاية من وجودها هي عمارة الأرض وعبادة الله وهما وظيفتان محددتان لها.

وإن مكوناتها هما الأب والأم، لا يجب النظر إلى أحدهما مـن موقـع الآخر، بل النظر إليهما يجـب أن يتم من موقعهما كزوجين.

وإن ثمرتهـا الأطفالُ الذين من أجلهم تأسسـت الأسـرة: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾(البقرة:١٨٧).

وأما أصولها ومرجعياتها فالقرآن الكريم والسنة الصحيحة وكل ما ارتبط بالشريعة الإسلامية واستوحى منها مثل "مدونة الأسرة" وغيرها.

هـذه المعالم هي التي تكوّن المعنـى الاصطلاحي، لأنها تتدخل في تكوين المفهوم الحقيقي لمصطلح الأسرة. ومعالم معرفتهـا تغلـق البـاب فـي وجه، كما تفتحه فـي وجه كل فهم سـليم وتصور سـليم؛ وإلـى جانب هذه المعالم فإن للأسـرة مقومات ومبادئ.

فالمقومـات تقـوم على مقـوّم الزمـان والمـكان والثقافة والتراث والحضارة والعمران، أما المبادئ فتبدأ بمبدأ التعيين والتمكين والتخطيط والتنظيم والتوجيه والإنجاز. ■

(*) أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بـ"مراكش" / المغرب.

د. سعاد الناصر*

تفاعل القيم الإنسانية في الأدب

من مظاهر تكريم الله ﷻ للإنسان، أنه لم يتركه بدون مرشد في هذه الحياة، بل فطره على الحق: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الروم:٣٠). والقيم الإنسانية تنطلق من الفطرة السليمة التي خلق عليها كل البشر، باعتبارها معاني مشاركة في تكوين الشخصية الفردية، وإقامة البناء الاجتماعي، وممارسات توجه السلوك الإنساني، تضفي نوعًا من التوازن والانسجام في علاقة الإنسان بذاته وبمن يحيط به. ومما لا شك فيه أن ما تعيشه الحضارة الإنسانية المعاصرة من تحولات جوهرية، يجعل موضوع القيم من أبرز التحديات التي تواجه الأفراد والأسر والمؤسسات المدنية والمجتمعات والشعوب، خاصة الإسلامية وهي تعيش حالة حادة من حالات الانسلاخ عن الذات، سواء باجترار القديم دون تمحيص أو بالتقليد دون وعي أو تبصر، الأمر الذي يغدو معه استنباط القيم الإنسانية من عمق مكابدات الإنسان مع الحياة، قضية ضرورية وملحة،

كما أن محاولة إشاعتها باعتبارها قيمًا إنسانية مشتركة بين البشرية جمعاء، يمثل طوق النجاة لها.

وبما أن الأدب صيغة إنسانية تبحث في طبيعة سلوك الإنسان، وتسعى إلى إعادة اكتشاف العالم الداخلي والخارجي برؤية متجددة وإلى التواصل معهما، وتهدف إلى الكشف عن واحات بظلال وارفة يبصر فيها المتلقي آفاق النفس والكون عبر صور جمالية تنعكس على عقله ووجدانه، فإنه ليس لأحد أن ينكر أن القيم هي مجال الأدب بامتياز، وأنها ثمرة من ثمرات تفاعل الأديب مع واقعه النفسي والاجتماعي والثقافي، الأمر الذي يجعل المتلقي أكثر قدرة على الفهم والتفكير والتذوق، وأعمق غوصًا في طبيعة النفس البشرية. من هنا تصبح أسئلة من قبيل؛ إلى أيّ حد يمكن أن يستجيب الأدب للفطرة الإنسانية؟ وما علاقة هذه الاستجابة بسلّم القيم؟ وإلى أيّ حد ممكن يصبح الأدب محركًا لوعي الإنسان تجاه ما هو كائن انطلاقًا مما ينبغي أن يكون؟ أسئلة مشروعة تحفز الباحث على البحث والدراسة في موضوع القيم وارتباطه بالأدب.

جدلية العلاقة بين القيم الإنسانية والأدب

القيم الإنسانية في الإسلام لا تتغير ولا تتطور تبعًا للظروف الاجتماعية أو السياسية والأحوال الاقتصادية، بل هي حدود ثابتة متينة ضد الفوضى والظلم والشر والفساد، يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾(البقرة:٢٣٠). لذلك فالإنسان المؤمن يسعى دائمًا إلى الثبات على القيم مهما تغيرت به الأحوال، ولا يحق له التغيير سوى فيما يساعده على ذاك الثبات، وما يحقق طبيعة استخلافه في الأرض. والأدب تعبير جمالي عن أدق مشاعر الإنسان، وعن قضاياه الفردية والجماعية، يحفز المتلقي على معانقة الخير والحق والجمال، ونبذ العنف والفساد والقبح. من هنا ندرك عمق العلاقة بين القيم والأدب في المنظومة الإسلامية.

وبما أن "الإسلام يبسط من خلال قرآنه وسنة نبيه، رؤية جديدة للكون والعالم والحياة والإنسان، رؤية تجيء بمثابة انقلاب شامل على كل الرؤى المحدودة، والمواضعات البصرية القاصرة، والأعراف والقيم والتقاليد والممارسات المبعثرة الخاطئة، رؤية تبدأ انقلابها هذا في صميم الإنسان، في عقله وقلبه وروحه ووجدانه وغرائزه وميوله وصيرورة الحركة التاريخية"[١] فإن تفاعل الأدب مع القيم يعني؛ انطلاق الأديب المسلم في ممارساته الإبداعية، من رؤية أخلاقية وإنسانية تبرز مصداقيته في الالتزام بتوظيف الأدب لخدمة العقيدة والشريعة والقيم وتعاليم دينه ومقاصده، وتبيّن إيجابيته عند معالجة قضايا العصر والحياة، التي ينفعل بها انفعالاً مستمرًّا، فلا يصدر عنه إلا نتاج أدبي متفق مع أخلاق الإسلام وقيمه وتصوراته، ونظرته الشاملة للكون والحياة والإنسان؛[٢] في إطار من الوضوح والعمق الذي يبلور حقيقة علاقات الإنسان مع ذاته وخالقة والكون من حوله، وحقيقة الرسالة الملقاة على عاتقه، التي هي رسالة إنسانية تقتضي منه "الإحساس بالحياة التي يحياها، والتعمق في المجتمع الذي يعيش فيه، وتزكية ما يلتمع في ذلك المجتمع وفي تلك الحياة من مثُل وقيم كريمة تدعو إلى حرية وحق وخير وسلام".[٣]

وفي هذا الإطار، انطلق توجه الأدب الملتزم بقيم الإنسانية في الأدب العربي، مستهديًا بالتصور الإسلامي ومنهجه على مر العصور، ولم يعرف غيابًا عن حركة التاريخ في يوم من الأيام، لأنه كان مرتبطًا بالأرضية الفكرية والنفسية التي يقف ويتوقف عليها الإنسان العربي والمسلم، ولأنه كان ممتزجًا بآلام وآمال هذا الإنسان... ولعل كل ذلك يفسر قسطًا من سبب بقائه ومشروعية استمراره منذ أزيد من أربعة قرون، رغم الفتور الذي يلاحظ بصدده في بعض المراحل التاريخية.[٤]

رسالة الأديب في المجتمعات الإسلامية

ويمكن بعد هذا، تقسيم القيم الإنسانية في الأدب إلى ذاتية وإبداعية. القيم الذاتية، تنبع من ذات الأديب وانضباطه الأخلاقي الذي ينسحب على رؤيته للأمور، وعلى مواقفه من مختلف القضايا التي يعبر عنها، ويجعله يجنح نحو طلب القيم الأخلاقية الحسنة التي تعصمه إنسانيًّا من الانحطاط في دائرة الكائنات غير الإنسانية، وتكون سمات أساسية في نسيجه السلوكي والإبداعي.

أما القيم الإبداعية، فهي مجموع العناصر والصفات التي يمكن أن يتميز بها إبداعه، والتي يستمدها الأديب المسلم من القرآن الكريم، فيتميز أدبه بعناصر الصدق والأمانة والدقة والطهارة والقوة وغير ذلك من الصفات الجمالية المرتبطة بالقيم. إن الأديب بصفة عامة "هو واحد من المدعوين لممارسة المهمة الخطيرة بفنه القادر على التأثير والتحصين، بل إنه مدعو إلى أكثر من هذا؛ إلى دعوة المجتمعات الإسلامية

لاستعادة ممارستها الأصيلة، وقيمها المفقودة، وتكاملها الضائع، وتقاليدها الطيبة، وإحساسها المتوحد، وصبغتها الإيمانية التي أبهتتها رياح التشريق والتغريب".[5] من هنا يمكن القول إن على الأديب -بصفة عامة- أن يخلص لرسالته، وألا يجعلها أداة انحراف وفساد، وليس له "أن ينشر الناس مباذله بدعوى الحرية والانطلاق من القيود"،[6] لأن لـه على أمته حقًّا لا يجوز لـه أن يهضمه ولا يجوز لها أن تتنازل عنه.

حضور القيم الإنسانية في الأدب

تتفاوت درجات حضور القيم الإنسانية بمفهومها الذاتي والإبداعي في الأدب العربي بصفة خاصة، إلا أنه لا يكاد يخلو منها. وكلما كان حضورها قويًّا متداخلاً مع القيم الجمالية، كان أعمق تأثيرًا في النفس، وأكثر قدرة على التغيير نحو عالم أفضل وأحسن.

وأول القيم التي تستوقف الدارس في هذا المجال قيمة الصدق، يقول تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧).

ترى المعاجم اللغوية أن الصدق ضد الكذب، وتفسّر بعض كتب البلاغة العربية الصدقَ بأنه مطابقة الخير للواقع، والكذب بعدم مطابقته للواقع، لكن الصدق في الأدب يعني الصدق الشعوري المنبعث من الإيمان، والناتج عن الالتزام بقيم الإسلام. وهذا الصدق في العمل الأدبي، لا يتناقض مع التعبير الفني وجماليته ووسائله المختلفة طالما أن هذه الوسائل توضح الحقيقة، وتكشف عن كنهها، وتؤكدها في ذهن المتلقي.

وقد وردت هذه السمة ضمن قول عمر بن الخطاب ﷺ في زهير بن أبي سلمى: "ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"،[7] وهي عبارة يُفهم منها معنى الموافقة مع واقع الحال، أو الصدق في الواقع. كما وردت كلمة الصدق في بيت شعر لحسان بن ثابت ﷺ بمفهوم مطابقة نفسية الشاعر أو حاله:[8]

وإن الشعر لب المرء يعرضه***على المجالس إن كَيسًا وإن حُمقا

وإن أشعر بيت قائلـه***بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وقد خاض عديد من النقاد العرب في هذا المفهوم بعد عمر بن الخطاب وحسان بن ثابت رضي الله عنهما؛ أمثال الجاحظ وابن طباطبا وغيره... يقول الجاحظ: "وأنفع المدائح للمادح وأجداها على الممدوح وأبقاها أثرًا وأحسنها ذكرًا أن يكون المديح صدقًا ولحال الممدوح موافقًا وبه لائقًا". فمن خلال هذه القولة، تتجلى لنا بوضوح الدعوة إلى الالتزام بالصدق في الشعر عنده. ووقف "إحسان عباس" في كتابه " تاريخ النقد الأدبي عند العرب" على معنى "الصدق" في نقد ابن طباطبا في كتابه "عيار الشعر"، فرأى أن لدى ابن طباطبا استعمالات مختلفة له:

١- الصدق الفني أو إخلاص الفنان في التعبير عن تجربته الذاتية. يقول ابن طباطبا: "فإذا وافقت هذه الحالات، تضاعف حسن موقعها عند المستمع، لا سيما إذا أيدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس بكشف المعاني المختلجة فيها، والتصريح بما كان يكتم منها، والاعتراف بالحق في جميعها استفزازًا لما كان يسمعه".

٢- صدق التجربة الإنسانية -وهذه تتمثل في قبول الفهم للحكمة- يعلل ابن طباطبا ذلك "لصدق القول فيها، وما أتت به التجارب منها".

٣- الصدق التاريخي وذلك "يتمثل عند اقتصاص خبر أو حكاية أو كلام".

٤- الصدق الأخلاقي؛ فالقدماء كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مدحًا وهجاءً... إلا ما قد احتمل الكذب فيه حكم الشعر من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه. فكان مجرى ما يوردونه مجرى القصص الحق والمخاطبات بالصدق.

٥- الصدق التصويري، ويسميه ابن طباطبا "صدق التشبيه" فعلى الشاعر "أن يعتمد الصدق الحق والوفق في تشبيهات".

وفي العصر الحديث نجد من المهتمين بمفهوم الصدق في الأدب، الناقد "محمد النويهي" الذي وضع كتابًا خاصًّا يعالج موضوع "الصدق في الأدب"، ويبيّن لنا من خلاله صعوبةَ التحديد مطلقًا، رغم أنه قدم لنا فيه بعضًا من شروطه:

أ- "أن تكون عاطفة الأديب التي يدّعيها قد ألمت به حقًّا، وأن تكون عقيدته التي يتبناها هي عقيدته الحقيقية في الموضوع الذي يتناوله.

بـ- أن تكون حدة تصويره ناشئة عن حدة شعوره وقوة حساسيته لا عن رغبة المبالغة والتهويل.

جـ- ألا يخالـف تصويـره النواميـس البدائيـة للكون كما نعرفـه، ولا حقيقة السـلوك -السـلوك الإنسـاني- فيما نخبره من البشر في تجاربهم ومواقفهم، هذا فيما عدا الموضوعات الخرافية والأسطورية.

د- أن يكون من شـأن صنعته أن تزيد عاطفته جلاء وقربًا لا أن تقف أمامها حجابًا يشغلنا تأمله من النظر فيها".(٩)

وهذه الاستعمالات المختلفة للصدق، تجتمع حول معنى تحـري الحـق... من هنا فالصدق في الأدب يتحقق إذا انطلق مـن عاطفـة المبدع وانفعاله، وصدر عـن رؤية متعمقة للواقع والأشياء تتجاوز الأحداث لاستبصار أبعادها الجوهرية.

وقـد تجـزأت هـذه الرؤيـة الأخلاقية التـي تتكامـل فيها دلالات الصـدق، في أغلب مـا أنتجه الأدب العربي الحديث ونقـده، وأصبـح الأدب كـي يكـون صادقًا وناجحًـا، لابد أن يكون أدبًا مكشوفًا، وأصبح الاتجاه الطاغي حاليًا إبراز بعض القضايا بأساليب كاشفة منحطة، إلا من رحم الله.

وانتقادنـا لهذا الواقع السـائد في الأدب يرجع إلى اعتبار؛ أن تبنـي الأديـب للكلمـة الطيبـة الجميلـة، والمسـاهمة فـي تهذيـب الـذوق العـام وتربيتـه، وأن الوعـي بحاجـة المتلقي العربـي لأدب يقـدم الواقـع ولا يهـرب منـه، وتقديمه برؤى إنسـانية وجمالية تخرج به من شـرنقة التغريـب والانحطاط، ضـرورة إنسـانية وحضاريـة. وهذا لا يعنـي أن علينا مصادرة حرية الأديب، بل تعني أن ينضبط بمسـؤولية تهذيبها وتسديد طريقهـا، كـي تسـلك مسـلكًا إنسـانيًا رفيعًا، فلا تُسـقط هذه الحرية الأديب نفسه في نظر مجتمعه، ولا تُلحق الضرر بغيره إذا طاشـت حريته، ولم ترشّـد. فالتزام الأديب بقيم الإسـلام ومقاصده يجعله في مسـتوى عال من الحرية الإنسـانية ذات الأدب الجمّ. والذي يقوده إلى ذلك هو طبعه الإسلامي وقلبه التّقي، وحسّـه الإنسـاني المرهف؛ من هنا يصح لنا أن نقول؛ إن رسـالة الأديب المسـلم ربانية إنسـانية، وليست حيوانية أو شـهوانية. وإن الأديـب بصفة عامة، ليس مجرد إنسـان يملك مشاعر وأحاسيس، ويعاني من المشكلات والصعاب والآلام المنتشـرة في المجتمع الإنسـاني، وإنما هـو أيضًا -وقبل أي شيء آخر- يملك رسالة حضارية، تخول له البحث عن تجاوز للمعاناة، وعن حلول للمشـكلات حتى وهو في أكثر لحظاته انفعـالاً وتصويـرًا وإبداعًا، كمـا أن الله تعالى حباه بشـحنات مضاعفة من دقة الإحسـاس وعمق الشـعور بالمسؤولية عليه توظيفها في أدبه.

والأديـب المسـلم وإن لامس فـي الحياة تجـارب هابطة وغيـر أخلاقية، فإنه يعبر عنها تعبيـرًا حيًا يدفع إلى النفور من ذلـك الواقـع. وهـذا الأمـر نجده -بشـكل أو بآخـر- في كل الحضـارات الإنسـانية، كما نجده عند بعض الأدباء أنفسـهم وإن كانوا غير متنسـبين إلى الإسـلام، يقول "بلزاك": "ليسـت مهمـة الفن أن يقدم نسـخة طبق الأصل عـن الواقع، وإنما أن يعبّر بشكل فني عن هذا الواقع، أن يكشف عن لغزه وسره".

ومـن القيـم التـي نجدهـا فـي أدب المسـلم أيضًـا قيمة "الطيبـة" المرتبطة بالمفهوم القرآني في قولـه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْـفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَـلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَـةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۞ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَـةٍ اجْتُثَّـتْ مِـنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَـا لَهَا مِنْ قَـرَارٍ ۞ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِيـنَ وَيَفْعَـلُ اللهُ مَـا يَشَـاءُ﴾(إبراهيم:٢٤-٢٧). ولا يمكن اسـتجلاء هـذا المفهـوم، إلا فـي علاقته بمفهوم الخشـية من الكلمة الخبيثة كما ورد في قوله ﷺ: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة في سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم" (رواه البخاري).

ومعلـوم أن الألـف واللام فـي "الكلمة" للجنس فتشـمل جميـع أنـواع الكلام من غير تخصيـص، حتى التي تدخل في مجـال الأدب والمجاز والاسـتعارة. ونظرة إلـى الأدب التي ينتجـه المسـلم الملتـزم بقيم دينـه ومبادئه، يكشـف أنه يعف قلمه عن كتابة كلمة "خبيثة" وإن تعرض لأي قضية من قضايا الـذات أو المجتمـع أو الأمـة، فمهما سـمت أو سـفلت فإنه يتعرض لها بأسلوب عفيف طيب. والنماذج كثيرة ومتعددة.

وتحـري سـمات الصـدق والطيـب عند الأديب المسـلم يسـلمه إلى تحري عناصر الهدف واليقيـن وانتفاء العبث عن كتاباته امتثالاً واستجابة لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًـا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَـا لاَ تُرْجَعُونَ﴾(المؤمنـون:١١٥). فهو يعرف قيمة الأدب ورسـاليته ودوره فـي الدعوة إلـى الله وإصلاح النفس والمجتمع. ويعي أنه طريق مهم من طرق بناء الإنسان الصالح والمجتمـع الصالـح، وأداة من أدوات الدعوة إلى الله والدفاع عن الشـخصية المسـلمة. فيسـعى إلى تسـخير بيانه لرسـالته

في إطـار وعيه بقيمة الكلمة ومسـؤوليتها، ودورها في التأثير وتشكيل وجدان الإنسان... خاصة وأنه يعيش في ظل عولمة تتنازعه فيها المفاهيم والأفكار والتصورات بكل سلبياتها.

ومن القيم التي يجب أن يتميز بها أدب المسـلم؛ الإتقان. عن عائشـة رضـي الله عنها قالت: قال رسـول الله ﷺ: "إن الله يحـب إذا عمـل أحدكم عمـلاً أن يتقنـه" (رواه أبو يعلى)، وهذه خاصية لا يجب التهاون فيها كي تقدم نصوصًا جمالية يمكن أن تؤثـر، لأن أيّ نـص يخلو من جمالية التعبير وإتقان الصيغ والأسلوب، لا يمكن أن يُعد أدبًا.

ومـن خـلال هـذه السـمات والعناصـر، يتكامـل البعـد الجمالـي مـع البعـد القيمـي والأخلاقـي. ذلـك أن القيم في العمـل الإبداعي عمومًا، لا ينتقـص من جمالية النص الأدبي مهما كان جنسـه، لأنها سلوك جمالي ينبع من فطرة الإنسان. وقديمًا لم يقبل "أفلاطون" الشـعر إلا إذا كان مرتبطًا بوظيفته التربويـة ومهمتـه الأخلاقيـة. ولذلـك رتـب أجناس الشـعر، حسـب دلالتها الأخلاقية المباشـرة.[10] وحينما يتحلى النص الأدبـي بالقيم، فإن النص يشـع بالجمـال، لأن مركز الجمال فـي المفهوم الإسـلامي يكمن فـي الخلق الحسـن. ومن هنا يكون تغييب القيم الإنسانية عن الإبداع، تعبيرًا عن الانحراف الفكـري والعقـدي، وانعكاسًـا لشـكل مـن أشـكال التخلف والرجعة والانحطاط إلى مستوى الحيوانية. ■

---

[*] جامعة عبد المالك السعدي، تطوان/ المغرب.

الهوامش

[1] محاولات جديدة في النقد الإسلامي، للدكتور عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص:٩، ط:١، ١٩٨٩.

[2] انظر: نحو مذهب إسـلامي في الأدب والنقد، لعبد الرحمن رأفت الباشـا، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

[3] الأدب الهادف، لمحمد النويهي، ص:٦٧.

[4] انظـر: جمالية الأدب الإسـلامي، لمحمد إقبال عروي، المكتبة السـلفية، البيضاء، ص:١٩-٢٠، ط:١، ١٩٨٦.

[5] وظيفـة الأدب في المفهوم الإسـلامي، للدكتور عماد الدين خليل، مجلة الأمة، عدد:٢٨، س:٣، ١٩٨٣.

[6] بديع الزمان النورسـي، أديب الإنسانية، لحسن الأمراني، منشورات مكتبة سلمى الثقافية ٨، ص:١٨، ط:١، ٢٠٠٥.

[7] العمدة، لابن رشيق، ج:١، ص:٨٠.

[8] ديوان حسان بن ثابت، ص:١٦٩.

[9] محاضرات في عنصر الصدق في الأدب، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، ١٩٥٩.

[10] انظر: النقد الأدبي الحديث، لمحمد غنيمي هلال، ص:٣٣.



شوقي وافي*

امرأة العزيز

فوجئتْ به يرفض.. أشاح بوجهه عنها.. ليس في وسعها غير الابتسام.. غِرٌّ ساذج.. لم يفهم للدنيا معنى بعدُ.. أعرض عليه نفسي فيمتنع!؟ لو علم أي إنسان بذلك لملأت الحسرة قلبه.. كل البلاط يرقد تحت قدمي.. أمراء.. خدم.. لو سألتهم أين الشمس؟ أين القمر؟ السماء.. الأرض.. لما تحولت عيونهم عن وجهي.. أسرى لتلك العيون موثقون لذلك الثغر السحري.

طلعتها تثير البهجة والسعادة.. تنبض بها القلوب.. تحلق نشوى.. من يجهل الملكة! بل من يأبى أو يتمنع! ازدادت ابتسامتها سخرية.. أقبلت الخادمة:

- سيدتي.. الملك يسأل عنك.

- فليأت.

جاء الملك.. ابتدرها متلهفًا:

- أين كنت؟ بحثت عنك في كل مكان.. غبت عني ساعة.. عشتها بدونك، بل لم أعشها.. ماتت ساعة.. اقترب منها يتملى جمالها؛ عيناها تتألقان. الفَراش يسبح في الضوء الأحمر، يذوب عشقًا.. لَسَعات الكهرباء تسري في بدنه.. ينتفض.. اللهيب يكاد يحرق الفَراش الملتصق.. جَنّ الليلُ.. راحت ترتدي ثياب الحفل.. نظرت إلى المرآة انبهرت المرآة من حسنها.. نطقت:

- لم يخلق الله أبدع منك.

ابتسمت في تيه.. أجابت:

- أعرف ذلك.

جاءت الخادمة:

- سيدتي.. الجميع في انتظارك.

خرجت إليهم.. غمرتهم بنورها.. خروا ساجدين.. ملأت أشعتها الأرجاء.. هرول إليها الملك.. طبع على جبينها قبلة.. استنشق فيها الضوء والعبق.. انحنى الوزير على يدها.. نهل من ذات الضوء والعبق.

لثم الساجدون قدميها.. ارتووا أيضًا بنفس الشيء.. تفحصتهم جميعًا.. ما زالت الفَراشات تسبح في هالة ضيائها.. طاف بذهنها ما حدث بالأمس.

ذلك الفتى الذي لو يجيء الآن.. لو يشاهد عبدة الشمس والقمر.

انفرجت شفتاها.. تطلب الفتى..

تسابقوا ليحضروه.. ولم يصدقوا أعينهم!. الفتى الجَسور لم يسجد لها!. حدقوا فيه مذهولين.. راحوا يطوفون حولها.. نظر إليهم.. شاهد ذيولهم تهتز بشرى وسعادة.. حول بصره إليها.. يتأملها في أناة.

انتابها الغيظ.. ما شأنه هذا.. فاحت رائحة كريهة.. زكمت أنفها.. اقشعر جسدها.. صرخت تأمره بالانصراف.. لم تستمتع باللهو مع الباقين.

وحدها.. تفكر فيه.. من يكون؟ هل ملك أمري؟ إنه خادمي!. ولكن.. لو أحكم قبضته قد أموت.. لا.. لن يكون..

ذهبت إليه.. اقتحمت عليه الغرفة.. جفل منها.. خطت نحوه.. صوبت إليه نظرها.. أغمض عينيه يتفاداها.. أنفذت عطرها إلى خياشيمه.. صاح قائلاً:

- يا إلهي!

سيطر عليها الغضب.. من تنادي يا وقح؟ من أنت؟ وكيف تمتنع عليّ؟ أنا أنا.. الكل يسجد لي.. أم تتمرد عليّ؟ صرخت فيه.. تحول صوتها إلى عواء.. تبدت أسنانها أنياب ذئب.. فزع منها.. راح يردد:

- يا إلهي!

ازداد هياجها.. أنشبت أظافرها في عنقه.. غرزت أنيابها في جسده.. تنهش وتمزق وهو يقاوم.. دفعها بقوة.. وقعت على الأرض.. أسرع يدوس رأسها بقدمه.. سقطت مصابيحها فوق أرض الغرفة.. انطفأت أضواؤها.. فاحت تلك الرائحة الكريهة.. ملأت أرجاء القصر.. أقبل أفراد الحاشية.. تساقطوا فوقها.

- مولاتي.. مولاتي.. مولاتي.. ماذا بك؟

انهمرت منهم الدموع.. تحولت الفراشات إلى ديدان.. تسبح في ماء آسن.. أشارت إليه وقالت في إعياء:

- هذا الفتى.. اقتلوه أو أموت. ■

(*) كاتب وأديب مصري.

د. رشيد اركيبي*



المقصدية الجمالية

أهم مقاصد القصة القرآنية

يشغل القصص مساحة واسعة في القرآن الكريم، وهذا يؤكد ما لهذا الفن السردي من أهمية بالغة في إيصال الخطاب القرآني والتأثير به في المتلقي، والذي يظل مشدودًا بتقنية السرد الحكائي لما لها من جاذبية وجدانية وفكرية، ما دامت تفرض عليه سلطة تأثيرية قوية في تقبل المعاني، واستيعاب المواقف بطريقة فنية بعيدًا عن الوعظ والتوجيه المباشرَين.

وباستقرائنا لكافة الأنماط والأشكال القصصية الموجودة بخاصة في القرن المكي، نجد أن القصة القرآنية قصة هادفة ذات وظيفة دلالية محورية،

بعيدة عن مجرد سرد الأخبار التاريخية للتسلية المؤقتة أو المتعة المزاجية أو التعليم التلقيني البارد. وهي وظيفة مرتبطة أساسًا بخدمة مقاصد علمية وسلوكية ترمي في العمق إلى الكشف عن الصراع بين القيم الإيجابية والأخرى السلبية، من خلال استعراض مواقف الشخصيات المتضاربة، وأحداث تاريخية ماضية غنية بالعبر والمواقف والقيم النبيلة، كما ترجمها أنبياء وصالحون في سيرتهم وسلوكهم. فهي تضع أيدينا على مكمن الداء كما أبرزته حيوات الأمم السابقة وتجاربها، لتمهد الطريق في النهاية إلى كشف مكامن الدواء كما يريدها الله ﷻ في كتابه الكريم.

لقد وفت القصة القرآنية بكل شروطها الفنية المطلوبة، وانتقت أهم الآليات والتقنيات السردية، وأولتها دورًا هامًّا في استجلاء المعاني واستعراض مواطن الاعتبار والعظة، مما جعلها عملاً فنيًّا مكتمل الأغراض مستوفي السمات الفنية.

الصياغة والعرض، أداة وغاية في نفس الوقت. فالأغراض الدينية المختلفة يتم إبرازها من خلال سياق جمالي متميز، يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني في سياق محكم ومتوازن.

وما كان القرآن الكريم، وهو الكتاب المعجز بأسلوبه البياني وتعبيره الفني المتميز، ما كان له أن يهتم بهذا الحشد من القصص الهادف، دون أن يصوغه ضمن صياغة فنية وجمالية مؤثرة، تفي بكل شروط وآليات التعبير الفني وعناصر السرد الحكائي المؤثر؛ من حبكة وحوار وشخصيات وأحداث وأشكال سردية.

ويمكن حصر مجالات هذه الوظيفة الدلالية المحورية للقصة القرآنية في أربعة مقاصد رئيسة هامة: مقصدية إخبارية تاريخية، ومقصدية تربوية وعظية، ومقصدية نفسية، ثم أخيرًا المقصدية الجمالية.

وسنركز حديثنا في هذه الدراسة على المقصدية الجمالية فحسب، ما دامت تعتبر -في رأينا- من أهم وأغنى مقاصد القصة القرآنية، وذلك لما لها من دور تعبيري فعال في إيصال كل المقاصد الأخرى، وذلك بأسلوب فني وإبداعي مؤثر يحيل مقاصد القصة القرآنية وقيمها وعِبرها ومفازاتها لوحاتٍ فنية؛ لوحات فنية رائعة تؤثر في كيان المتلقي وتدفعه إلى التفاعل معها إيجابيًّا.

وهذه المقصدية الجمالية -مع الأسف- لم تنل الاهتمام الكبير اللائق بها من قِبل أغلب الدارسين والمفسرين للنص القرآني، اللهم إلا ما تم في إطار دراسة الإعجاز البياني للقرآن الكريم عمومًا. لكن خارج هذا الإطار ما زالت الجهود متواضعة في استيعاب حقيقة البعد الجمالي للقصة القرآنية، وهذا ما سنحاول الإلمام بجانب منه في هذه الدراسة المركزة.

التصوير الفني وإبراز الوجدان الإنساني

إن تحقق كل المقاصد القرآنية السابقة، يتم أساسًا عبر هذه المقصدية الجمالية، والتي تجعل من الجمال الفني في

ويظل التصوير الفني -حسب سيد قطب- أهم طابع فني يميز القصة القرآنية، حيث يسري إلى كل عناصرها الحكائية بعفوية تضفي جمالية متميزة على العمل القصصي ككل. فالقرآن عمومًا وفي كل أساليبه الفنية، يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة والحركة المتجددة.

فالحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، يردها شاخصة حاضرة فيها الحياة والحركة. فإن أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأولى. ومن ثم كان التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن عمومًا وفي القصة القرآنية على الخصوص.[1]

فالمواقف والمشاهد لم تنقل بطريقة إخبارية جامدة، ولكن بطريقة تصويرية يقدم فيها الحدث كاملاً، يجمع بين المعلومة الإخبارية والإحساس المصاحب لذلك، حيث تتضح التجربة كاملة.

كما يركز التصوير الفني على إبراز ما يكتنف الوجدان الإنساني من عواطف وانفعالات، وذلك من خلال سلوك الشخصية وموقفها من الأشياء، وعبر منظورها الخاص

تجاه الأحداث. فيكشف ما بداخل الشخصية من انفعالات ومشاعر؛ كالحيرة والقلق والخوف والاضطراب والفزع والفرح والحزن... ومثال ذلك تصوير شخصية "مريم" في سورة مريم، والتفنن في تقديم ما اعتمرها من مشاعر متضاربة، حافلة بالصراع الدرامي الداخلي والخارجي، وأيضًا تصوير شخصية أم موسى عليه السلام التي عاشت ظروفًا نفسية عصيبة وصراعًا داخليًا شديدًا، تفنن السياق الفني في عرضه في صورة القصص مثلاً.

الأداء الفني وسيلة للإبداع

ومن جهة ثانية، فإن نوعية الموضوعات المعالجة في القصة والغرض المطلوب منها، هو الذي يتحكم في طريقة بناء القصة وطريقة الأداء الفني، الذي اتخذته القصة القرآنية وسيلة للإبداع؛ من تفصيل في العرض أو إيجاز فيه أو اكتفاء بالسرد أو استماع للحوار أو المزج بنيهما أو تعقيد الموقف أو تبسيطه، فضلاً عن انتقاء المواقف المثيرة بما تتضمنه من مفاجآت وحلول.[٢]

فقد يتم التركيز في سياق معين على الأحداث، إذا كان القصد إلى الإنذار والترهيب مثلاً. ويتم انتقاء أحداث معينة وجزءًا معينًا من القصة بطريقة فنية معينة تتساوق وطبيعة الموضوع المعالج.

وقد يتم أحيانًا أخرى التركيز على الأشخاص، حين يكون القصد متجهًا إلى تثبيت الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم على الحق الذي يؤمنون به ويدعون إليه.

كما يأتي تصوير القرآن للشخصية القصصية حسب ما يقتضيه السياق الدرامي للقصة وموضوعها المحوري من المعالجة فتقدم الشخصية بكافة أبعادها الداخلية والخارجية، حيث نلحظ الشخصية في حركة دائمة تتخذ مسلك ما يمليه عليها الموقف، واتجاهًا يكون نابعًا من ذاتيتها. مما يحيل الشخصية القرآنية شخصية غنية بالمواقف والحركية، شخصيات نامية متطورة في أدائها الفني، تعبر عن قيم أو فكرة معينة بكل تلقائية وإقناع بعيد عن أي افتعال. انظر مثلاً شخصية موسى عليه السلام في صراعه مع فرعون ومع بني إسرائيل في رحلته الطويلة، منذ كان صبيًا إلى أن قام بمهمته التبليغية أحسن قيام.

وقد يكون التركيز أحيانًا على الحوار، حين يكون القصد إقامة الحجة والبرهان والإقناع، بحكاية أقوال الخصم أو التعريض بشخصية ما أو التعقيب عليها، إذ يظل الحوار عنصرًا محوريًا في مجموعه من القصص القرآنية. ولنا في حوار موسى عليه السلام مع فرعون ومع بني إسرائيل أكبر نموذج لذلك.

وقد يأتي الحدث والشخصية في مستوى واحد من الأهمية فيكمل أحدهما الأخر ويتناوبان على مركز الإهتمام كما في قصة موسى عليه السلام.

خضوع القصة للغرض الديني

وكان أيضًا من آثار خضوع القصة في القرآن للغرض الديني، أن ترد القصة الواحدة في معظم الحالات مكرورة في مواضع شتى، ولكن هذا التكرار -كما يرى سيد قطب- لا يتناول القصة كلها غالبًا، إنما هو تكرار لبعض حلقاتها، ومعظمه إشارات سريعة لموضوع العبرة فيها. أما جسم القصة فلا يكرر إلا نادرًا ولمناسبات خاصة في السياق. وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظًا السياق الذي وردت فيه، يجدها مناسبة لهذا السياق تمامًا في اختيار الحلقة التي تعرض هنا وهناك وفي طريقة عرضها. فالقصة تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء الغرض المطلوب، ومن الحلقة التي تتفق معه؛ فمرة تعرض القصة من أولها ومرة من وسطها ومرة من آخرها، وتارة تعرض كاملة وتارة يكتفي ببعض حلقاتها وتارة تتوسط بين هذا أو ذاك حسب العبرة في هذا الجزء أو ذاك. ذلك أن الهدف التاريخي لم يكن بين أهداف القرآن الأساس كالهدف القصصي سواء.

وعلى العموم فقد وفت القصة القرآنية بكل شروطها الفنية المطلوبة، وانتقت أهم الآليات والتقنيات السردية، وأولتها دورًا هامًّا في استجلاء المعاني واستعراض مواطن الاعتبار والعظة، مما جعلها عملاً فنيًّا مكتمل الأغراض مستوفي السمات الفنية والله أعلم بمراد كتابه. ■

---

[*] كلية الآداب، جامعة شعيب الدكالي / المغرب.

الهوامش

[١] التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ص:٣٦ وما بعدها.

[٢] "القصة القرآنية"، لـ"حمد علي قطب"، دار قباء للنشر، ص:٢١٤، ٢٠٠٢.

صلاح عبد الستار الشهاوي*

التيفاشي

قمة سامقة في الجيولوجيا

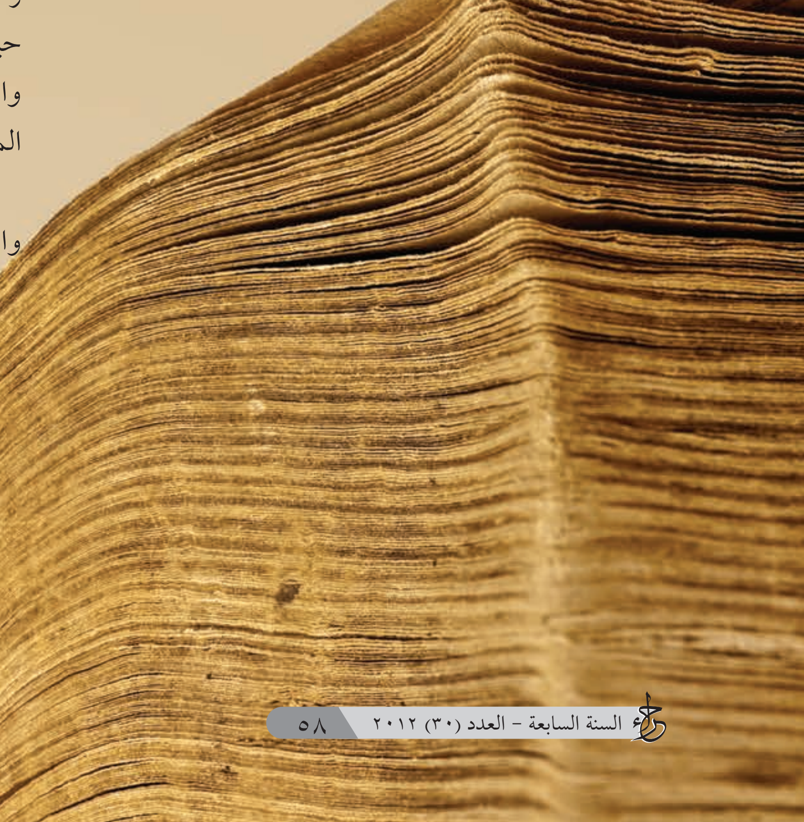
هـو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بـن أحمد بن أبي بكر بـن حمدون (١١٨٤-١٢٥٣م)، عُـرف بـ"التيفاشـي" نظـرًا لمولـده بقريـة تدعـى "تيفـاش" تقع بالقـرب من بلدة "قفصـة" بغرب وسط تونس، كما عرف أيضًا بـ"القفصي".

وهو موسـوعة معارف كاملة؛ في الطب، وعلم الاجتماع، والجغرافيـة، والفلـك، والـكلام، والقانـون، والأدب، وقـد اشـتهر -خاصة- كعالم معادن مـن الطراز الرفيع. كان يجري التجـارب العلمية والمشـاهدات الشـخصية، لتأكيد معلوماته مزيـلاً بذلـك عنها ما علـق بها من خرافاتٍ وأسـاطير اليونان والإغريق والرومان.

ويعـد أول مـن ألـف مـن المسـلمين فـي علـم الأرصاد الجويـة... كَتَب في تفسـير القـرآن الكريم، ونقـل الكثير من الأحاديث الشـريفة بإسناده. اشـتهر بأنه أديب متمكن له شعرٌ حسـن ونثـرٌ جيد... ألمَّ بالكثير من علـوم عصره، رحالة كبير جـاب الكثيـر من أقطـار العالم للحصـول علـى المعلومات العلمية الدقيقة من مصادرها؛ تدل على ذلك، آثارُه التي تعتبر حجة بمقاييس عصره، وهي حبيسة المكتبات تنتظر من يزيح عنها غبار السنين لتعود إلى الواجهة.

فـي "قفصـة" درس على والده، وتقيل كثيـرًا من خطواته، ولعـل شـغفه بعلوم الأوائـل، إنما كان تأثرًا بـه واعتمادًا على الكتـب التـي جمعها أبوه في تلك العلـوم... ومنها انتقل إلى تونـس فسـمع فيها على أسـاتذة منهم "أبو العبـاس أحمد بن أبـي بكر بن جعفر المقدسـي"، ثم غادرهـا إلى مصر وهو لم يبلغ الرابعة عشر من العمر كما حدّث ذلك بنفسه. وفي مصر أظهـر رغبـة كبيرة فـي طلب العلـم فكان ينتقـل بين مجالس العلماء ومقابلة الشـيوخ، فقرأ وتفنن واسـتفاد كثيرًا... بعدها انتقل إلى دمشق وبغداد، وتتلمذ على علمائها وأدبائها. وبعد هذه الرحلة العلمية عاد إلى مدينة "قفصة" واسـتقر بها، حيث عُيّن في وظيفة القضاء التي لم يسـتمر فيها طويلاً، ليسـتأنف رحلاتـه العلمية، خاصة ما يتعلـق بعلم المعادن والحجارة... حيـث عـرف عنـه رحلاتـه وجولاتـه الميدانية للبحـث عنها واسـتخراجها، وإجراء التجارب التطبيقية عليها، والبحث عن المتخصصين والمهتمين بهذا العلم.

ثـم عـاد إلـى مصر مـرة أخرى ليسـتقر بهـا حتـى وفاته؛ وانتصـب بهـا للتدريـس، حيث تخـرج علـى يـده العديد من



العلماء. قام في مصر بتدوين كتابه الشهير "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" الذي انتهى من تأليفه عام (١٢٤٢م). توفي التيفاشي بـ"القاهرة" ودفن بها بمقبرة باب النصر.

عرف عنه كثرة المطالعة، واقتناء الكتب، ولهذا تجده يقول في بعض مؤلفاته: "إني امرؤ استنبطت العلوم، وحذقت النجوم، وطالعت جميع الكتب من العلوم بأسرها على اختلاف أجناسها وأصنافها". ومع ذلك لم تكن المطالعة مصدره الأهم في المعرفة، بل ربما كان أهم منها؛ المعرفة التي حصلها عن طريق السماع والمشاهدة والاختبار العملي، وأعانه على ذلك؛ دقة في الملاحظة، ومسارعة إلى تقييد ما يلاحظه أو يسمعه أو يجري فيه اختبارًا تستوي في ذلك بسائط الأمور ومعقداتها.

إنجازات التيفاشي العلمية

نبغ التيفاشي أساسًا في علم "الجيولوجيا" (Geology)، وبصفة خاصة في الدراسات والبحوث المتصلة بـ"علم المعادن"، و"الأحجار" (Mineralogy)، لكنه أحاط أيضًا إحاطة واسعة بعلوم الجغرافيا والأرصاد الجوية والطب وألف فيها. ومن أبرز إنجازاته في علم المعادن ما يلي:

• وضع أول تصنيف علمي صحيح للمعادن، وهذا التصنيف يعد أساس التصنيف العلمي الحديث المعمول به في عصرنا الحالي.

• اهتم بالبحث في أصول المعادن التي يتناولها بالدراسة، ودأب في مؤلفاته عن المعادن والأحجار، على محاولة تفسير أسباب وجودها في الطبيعة. ومما يحسب له أنه وضع نظرية خاصة بأصول بعض المعادن الثانوية تتفق في جوهرها مع النظريات الحديثة في هذا المجال.

• كان أولَ من أشار إلى بعض الظواهر المهمة في علم المعادن، مثل "التشقق" (Cleavage) و"التوأمة" (Twinning)، حيث تكون البلورة من توأمين أو أكثر لمن تناولها بمصطلحاته الخاصة المختلفة عن هذه المصطلحات المرتبطة بعصرنا.

• حقق السبق والريادة في استخدام "اختبار اللهب" (Flame Test) في التحقق من جوهر المعدن أو الحجر الكريم. وفي ذلك يقول فيما كتب عن اللازورد: "وإذا وضعت قطعة منه في جمر ليس له دخان، وخرج لسان النار من الجمر منصبغًا بصبغ اللازورد، يثبت لون اللازورد على ما هو عليه. وهو بهذه المحنة يختبر خالصة من مغشوشة".

• توصل إلى إدراك تباين سلوك الضوء بعد مروره خلال المعادن، وفي ذلك يقول عن الماس: "من الألماس نوع له شعاع عظيم، إذا ظهر ألقى شعاعه على ما ظهر بالقرب منه من ثوب أو حائط أو وجه إنسان وغير ذلك، بنور مختلف اللون أشبه شيء بنور قوس قزح". وهو يشير بهذه العبارات إلى ألوان الطيف التي تصدر عند تحلل الضوء إذا ما سقط على الماس المصقول.

مؤلفاته في الجيولوجيا وعلم المعادن

كتاب "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار": انتهى من تأليفه عام (١٢٤٢م)؛ يقع في ٢٥ فصلاً يختص كل فصل بدراسة معدن من المعادن عالج فيه: تكوّن الحجر في معدنه؛ معدنه الذي يتكون فيه، جيده ورديئه، خواصه في ذاته، قيمته وثمنه.

طبع أول مرة سنة (١٨١٨م) مع ترجمة إلى اللغة الإيطالية، بمطبعة مدينة فلورنسا من طرف الكونت الإيطالي "رينري بيشيا" (Raineri Biscia)، وهي طبعة ناقصة عن النسخ الخطية الموجودة من هذا الكتاب في خزائن العالم.

وعدد بروكلمان ما يربو على عشرين مخطوطة في المكتبات المختلفة، عدا ما لم يره مثل مخطوطتين بمكتبة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، ومخطوطة مكتبة الكونغرس الأمريكي وغير ذلك. وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية عدة مرات، كما ترجم إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية.

ويؤكد المنصفون من مؤرخي العلم الأوربيين، أن هذا الكتاب كان له الأثر العظيم على نشأة علم المعادن الحديث في أوروبا على يد الفيزيائي الألماني "جورجيوس أجريكولا" (Georgius Agrcola) (١٥٥٥م). وهم يؤكدون أيضًا أن بعض العلماء الأوربيين اقتبسوا الكثير من أبحاث التيفاشي ونظرياته التي حفل بها هذا الكتاب، ونسبوها لأنفسهم من دون الإشارة إلى صاحبها الأصلي.

وقد طبع هذا الكتاب سنة (١٩٧٧م) بالهيئة العامة المصرية للكتاب بالقاهرة، وهي طبعة منقحة ومحققة مذيلة بتعليقات هامة للدكتور "محمد يوسف" والدكتور "محمد بسيونى خفاجي".

كتاب "الأحجار التي توجد في خزائن الملوك وذخائر الرؤساء": توجد منه نسخة بدار الكتب المصرية، وعدد أوراقها (٤٤) ورقة أولها: "بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ثقتي...". وقد رتبه على ٢٥ حجرًا؛ تكلم عن كل

حجـر في خمسـة أبـواب، منها أوجـه تكونها وتكـون معدنه وجيـده ورديئـة وقيمته. طبع قسـم منه في الحجـارة الكريمة والجواهـر فـي مدينة "أوترخـت" على نهر الرايـن في هولندا سنة (١٨٨٤م).

كتـاب "خـواص الأحجـار ومنافعهـا": توجـد منه نسـخ مخطوطة بباريس وكلها مبتورة وناقصة. وحسـب ما يبدو من عنوانه، فهو يذكر خواص الأحجار سواء الكريمة منها وغيرها وفائدة كل نوع ومنافعه.

مؤلفاته في الطب

كتـاب "الشـفاء فـي الطب عـن المصطفى ﷺ": وقـد نهج فيه منهج المحدث الحافظ "أبو نعيم الأصبهاني" في كتابه "الطب النبوي"؛ جمع فيه عددًا كبيرًا من الأحاديث، مما خرجه الإمام "أبـو نعيم الأصبهاني" ضمن تصنيف واسـع حول التطبيقات الطبية لرسول الله ﷺ والصحابة الكرام ﷺ، مجردًا من الأسانيد إلا القليل منها.

توجد منه نسخة مخطوطة مصورة في دار الكتب المصرية، منسوخة بقلم "شيخي حسن" من رجال القرن التاسع الهجري، جاء في مقدمته: "بسـم الله الرحمن الرحيـم، قال العبد الفقير إلى الله تعالى أحمد بن يوسـف التيفاشـي: اللهم يا من لطف حتى دق عن الأوهام والظنون، وجل حتى ظهر في كل حركة وسـكون، وتفرد بالوحدانية التي لا تدركه العيون، والتأثر عن خليقتـه بعلمـه المكنون، المشـتمل على علم مـا كان وما هو كائن وما سيكون، أهدانا لعمل يقرب في دار القرار، واحشرنا فـي زمرة أوليائك المصطفين الأخيار، ويحول بيننا وبين أهل النـار، وصلـى الله على نبيك وخليلك محمد المختار ﷺ". ثم يشرع في شرح منهجه في الكتاب، وكيف رتب مواضيعه جريًا علـى ما كان شـائعًا في المؤلفات في عصـره وقبله. ويوضح أنـه أورد فـي الكتاب الأحاديـث الموجودة فـي كتَاب الطب مـن صحيـح البخـاري، كمـا أورد أحاديث غريبة بأسـانيدها حـاول تخريجها وشـرحها والكلام عنها مـن جانب الصناعة الحديثيـة، ثـم يذكـر عنوان هـذا الكتـاب فيقول: "وسـميت هذا التخريج بالشـفاء في الطب المسـند عـن المصطفى ﷺ". وقـد طبع هذا الكتاب سـنة (١٩٨٨م) بتحقيـق "عبد المعطي قلعجي" وصدر عن دار المعرفة ببيروت لبنان في حلة قشيبة.

كتـاب "المنقـذ مـن التهلكـة فـي دفـع مضـار السـمائم المهلكـة": مـن الكتب المفقـودة، وقد ذكره التيفاشـي ضمن مؤلفاتـه في خاتمة كتابـه "أزهار الأفكار"، حيث جاء في آخر النسـخة المحفوظـة بمكتبـة قصر طوب قابي في إسـتطنبول/ تركيا، يتلوه كتاب "المنقذ من التهلكة".

مؤلفاته في علم الجغرافية

كتـاب "سـجع الهديل في أخبـار النيل": موسـوعة في تاريخ وجغرافيـة نهر النيل. ويبدو ومما نقله منه السـيوطي في كتابه "حسـن المحاضرة" والمقريزي في "المواعظ والاعتبار بذكر الخطـط والآثار"، أنه أهم مرجع معروف في ذلك الوقت عن نهر النيل؛ فهو موسـوعة اشـتملت علـى وصف حوض النيل وذكـر أحوالـه وفيضانـه ومزروعاتـه وما قيل فيه من أشـعار، ومما أورده التيفاشـي فيه: "أن الله ﷻ لم يسم من أنهار العالم إلا نهر النيل، واستشهد بأقوال المفسرين في تفسير "اليم" بأنه نهـر النيل فـي الآية الكريمة: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِـي التَابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِـي الْيَـمّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّـاحِلِ﴾(طه:٣٩)، كما ذكر أن نهر النيل مـن أنهـار الجنة وأورد الحديث الشـريف الذي رواه مسـلم: "سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ والفراتُ والنيلُ كلٌّ من أنهار الجنة"".

مؤلفاته في علم الأرصاد الجوية

"طل الأسحار على الجلنار في الهواء والنار وجميع ما يحدث بيـن السـماء والأرض مـن الآثـار": وهو جزء من موسـوعته "فصـل الخطاب في مـدارك الحـواس"، تناول فيه التيفاشـي وصفًـا لأحوال الفصول الأربعة وعلاقتهـا بزيادة مقدار الليل والنهار، ودلائل المطر والاستسـقاء ودلائـل الصحو ومعرفة الشتاء الذي يطول وهل يتقدم أو يتأخر.

والبـرق والرعـد والغيـم والربـاب، وهالة القمـر وقوس قـزح والاعتداليـن والحر والبـرد والغيوم والبـروق، والرياح والضباب، والأعاصير والزلازل والكسـوف والخسوف، وفي النـار ذات اللهـب ومـا تعلق بها ونـار النفـط والصاعقة ونار الفحم والكوانين.

وهذا الكتاب يعتبر أقدم موسـوعة وافية في علم الأرصاد الجوية. وقد اختصر الكتاب ونقل منه الكثير من العلماء كابن منظـور والقلقشـندي والجبرتي والغزولـي وغيرهم، وهو في حكم المفقود.

وإن له مؤلفات في التاريخ منها كتابه "في تاريخ الأمم".

مؤلفاته في الشعر

"الديباج الحسرواني في شعر ابن هانئ": وهو عبارة عن كتاب

شـرح فيه ديوان الحسـن محمـد بن هانئ الأزدي الأندلسـي (٣٢٦/٣٦٣هـ). وركز على شغف ابن هانئ بالغريب والألفاظ الصعبة التي قام التيفاشـي بنشـرها والتعليق عليها، وأعلن أنه مـن المعجبين بشـعره واعتبره ذا طابع خـاص مميز عند أهل المغرب، لا يضاهيه فيه إلا المتنبي عند أهل المشرق.

"درة الآل فـي عيـون الأخبـار مستحسـن الأشـعار": هذا الكتـاب يعتبر من مجاميع الاختيارات الشـعرية، حيث ضمنه مجموعـة مـن القصائـد والمقطوعـات الشـعرية. وقـد التزم بشـرطه فـي الكتاب، فكان لا يعـرض إلا النصوص المختارة السبك والرصف والمعنى.

مؤلفاته في الأدب والفنون

كتـاب "مشـكاة أنوار الخلفاء وعيون أخبـار الظرفاء"، وكتاب "متعة الإسـماع في علم السـماع" في الموسـيقى، كتاب "في البديـع"؛ حيـث جمع فيه سـبعين نوعًا من أنـواع البديع، وقد ذكر جملة كبيرة من أنواع البديع والألوان البلاغية الواردة في القرآن الكريم وفي خطب العرب وأشعارهم.

في الموسوعات

كتـاب "فصـل الخطاب في مـدارك الحـواس الخمس لأولي الألباب": موسوعة كبيرة في مختلف العلوم والتاريخ والآداب والقانون واللغة تقع في (٤٠) مجلدًا.

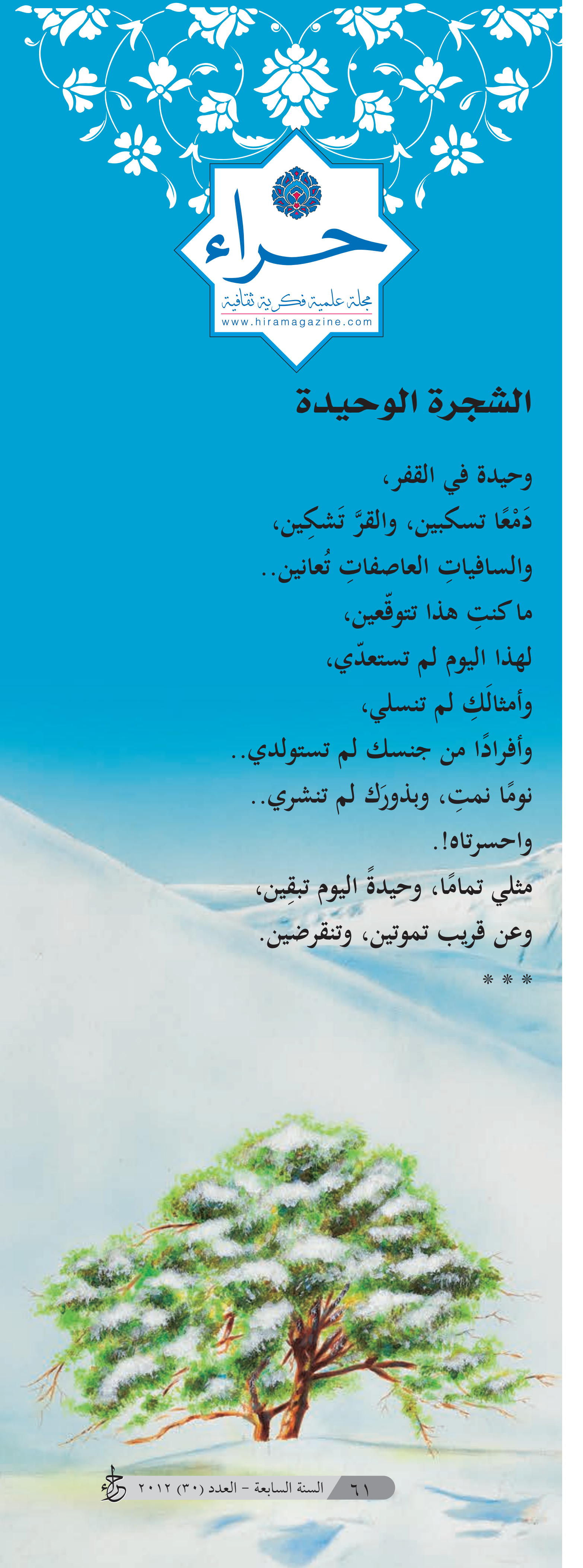
في التفسير

كتاب في تفسـير القـرآن الكريم: ذكر القلقشـندي في "صبح الأعشـى" أن للتيفاشـي تفسـيرًا تغلـب عليه القصـص. وفي "تـاج العروس" للعلامة المحـدث اللغوي "مرتضى الزبيدي" استشـهاد بقـول للتيفاشـي أثنـاء عرضـه لمختلـف التفاسـير والشروح لكلمة: ﴿غَاسِقٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾(الفلق:٣).

في فنون شتى

"الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة": أهدى المؤلف منه نسخة إلـى ابن العديم حيـن لقيه بالقاهرة، وهـو كتاب يتحدث عن فضائـل أهـل تونس، ودورهـم العلمـي والثقافـي، ويذكر ما اتصفوا به من الفروسية والأخلاق الحسنة. ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.



الشجرة الوحيدة

وحيدة في القفر،
دَمْعًا تسكبين، والقرَّ تَشكِين،
والسافياتِ العاصفاتِ تُعانين..
ما كنتِ هذا تتوقّعين،
لهذا اليوم لم تستعدّي،
وأمثالَكِ لم تنسلي،
وأفرادًا من جنسك لم تستولدي..
نومًا نمتِ، وبذورَك لم تنشري..
واحسرتاه!.
مثلي تمامًا، وحيدةً اليوم تبقين،
وعن قريب تموتين، وتنقرضين.
* * *

نور الدين صواش*



السلطان الخاشع
سليمان القانوني

أخبر موظفو القصر، السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) باستيلاء النمل على جذوع الأشجار في قصر طوب قابي.. وبعد استشارة أهل الخبرة خلص الأمر إلى دهن جذوعها بالجير.. ولكن لم يكن من عادة السلطان أن يقدم على أمرٍ دون الحصول على فتوى من شيخ الإسلام.. فذهب إلى أبي السعود أفندي بنفسه يطلب منه الفتوى، فلم يجده في مقامه فكتَب له رسالة شعرية يقول فيها:

إذا دبّ النمل على الشجرِ
فهل في قتله من ضررِ؟

فأجابه الشيخ حال رؤيته الرسالة بنفس الأسلوب قائلاً: إذا نُصِب ميزانُ العدل غدًا
يأخذ النمل حقه بلا خجلِ

وهكذا كان دأب السلطان سليمان.. إذ لم ينفّذ أمرًا إلا بفتوى من شيخ الإسلام أو من الهيئة العليا للعلماء في الدولة العثمانية.

توفي السلطان في معركة "زيكتور" أثناء سفره إلى فيينا.. فعادوا بجثمانه إلى إسطنبول.. وأثناء التشييع وجدوا أنه قد أوصى بوضع صندوق معه في القبر.. فتحير العلماء وظنوا أنه مليء بالمال فلم يجيزوا إتلافه تحت التراب وقرروا فتحه.. أخذتهم الدهشة عندما رأوا أن الصندوق ممتلئًا بفتاواهم.. فراح الشيخ أبو السعود يبكي قائلاً: لقد أنقذتَ نفسك يا سليمان، فأي سماء تظلنا وأي أرض تُقِلّنا إن كنا مخطئين في فتاوانا؟! ■


منمنمة: تشييع جنازة السلطان سليمان القانوني



الغطاسة العجيبة

عنكبوت الماء

كم من مرة أثارت العنكبوت فينا العجب ببيوتها التي نسجتها بدقة وإحكام في أماكن مختلفة.. وقد نكون متعودين على رؤية بيوت العنكبوت في الأحجار والأشجار والمنازل والجدران.. ولكن ماذا لو ذُكرت بيوت عنكبوتية تحت الماء! نعم، تحت الماء.. ويصنعها نوع من العناكب يعرف بـ"عنكبوت الماء".

تقوم عنكبوت الماء -قبل كل شيء- بالبحث عن المكان المناسب لبيتها بين سويقات النباتات المائية أو وريقاتها الساكنة.. وعندما تجد المكان، تنسج بيتها تحت الماء وتثبّته مباشرة بهذه النباتات، ثم تمدّ رصيفًا من النسيج وتربطه بالنباتات بخيوط نسيجية أخرى، حيث تجعلها تقوم بدور طريق تهتدي بها إلى بيتها، وبدور رادار تنبّهها بدنو الخطر أو باقتراب الفريسة.

لا تكتفي هذه العنكبوت بذلك، بل وتسكن في بيتها تحت الماء أسابيع وشهورًا عديدة! ولكن من أين تأتي بالهواء، وكيف تتنفس؟! إنها تندفع على سطح الماء وتتحرك بسرعة فائقة حتى تكوّن فقاعات هوائية، ثم تلتقط منها فقاعتين تضع الواحدة منهما تحت صدرها للتنفس منها أثناء الغطس، والأخرى بين قدميها لتلقيها وتختزنها في بيتها الحريري تحت الماء، وتُعيد هذه العملية مرارًا وتكرارًا حتى تؤمّن الكمية اللازمة من الهواء.

وإن سألتَ عن شكل هذا البيت وطريقة الإقامة فيه، أقول بحيرة وإعجاب؛ إنه على شكل قبة أو جرَسٍ فتْحَتُه مصوّبة نحو الأسفل، حيث تترك هذه المخلوقة الجانبَ السفلي من البيت مفتوحًا للدخول منه بعد تعبئته بالهواء وبعد إدخال فريستها التي اصطادتها، وإذا ما ولَجت البيتَ تنسج الفتحة مباشرة وتغلقها حتى لا ينفَد الهواء أو لا يتسرب إليه الماء، ثم تبقى شهورًا عديدة ولا تخرج من مسكنها هذا، إلا عند الحاجة إلى الهواء أو إلى الغذاء.

أمر آخر حيّر أذهان العلماء وأذهل عقولهم؛ ألا وهو خبرة هذه العنكبوت في الوقوف على الماء. فمن أجل ذلك تقوم بصنع كيس من نسيجها الحريري بدقة وبإحكام، ثم تعبّئه بالهواء وتفرشه على سطح الماء وتتربع عليه وكأنه بساط سندباد السحري! كأني أرى العنكبوت تتحيّر لحيرتنا هذه وتقول: وما الغريب في ذلك، إني أقوم بهذا العمل منذ آلاف السنين بوحي من رب العالمين!؟ ■

(*) كاتب وباحث تركي.



مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال: +20100780831
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،
أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
مربع ٤٨ رقم ٣١ أركاويت - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 991 367 91 86

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca /
Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

• المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار

وَنَحْنُ نَبْنِي حَضَارَتَنَا

مُحَمَّد فَتح الله كُولن

بتقديم أ.د. أحمد عبادي

- الانبعاث الحضاري في الأمة ما هي قواعده وأصوله؟
- لبنات هذا البناء من أين وكيف؟
- عوامل النهوض الحضاري كيف نشخصها؟ وكيف السبيل إلى استخدامها؟
- العقل الحضاري كيف نبنيه؟
- السلوك المتمدن كيف نشكله في النفوس؟



الشجرة اليابسة

صوتَ روحك أَسمِعْها، ومن دم قلبك فَاسْقِها..
لعل الرواء فيها يَسرِي، والحياةَ فيها تجري..
أرسلْ إلى السماء أنّاتك، وارفع إلى الأعالي توجّعاتك..
تأتك الرحمة غيثًا من الماورائيات..
فمذ توقفت النفحات العُلوية عن التنزلات،
أَقفر المكان، وتصحّر الزمان..
فأقبِل عليه، وناجِهِ بالتضرعات..
لعل هذا الجدب يزول، وهذا القحط يَحُول..

* * *



تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار

